إبن الدمينة الخثعمي

شاعر الصبوة والغزل

د. محمود عباس عبد الواحد

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأسـألـه أن يجنبنى الزلل فى الفكر ، والالتواء فى المسـلك ، وأصلى واسـلم على خير خلق الله ورسله أجمعين ... وبعـد

فهذه دراسة نطوف بها حول مدرسة النسيب البدوى ، لنلتقى فى ساحتها بشاعر فذ من شعرائها ، عرف فى تاريخ الشـعر العربى ب « ابن الدمينة » هو شاعر من شعراء الصـبوة والغزل ، ننزع بحياته ونسبه الى البيئة البدوية كما ينزع بطبيعة شعره واتجـاهاته الفنية الى تلك المدرسة التى ظهر فيها جميل بن معمر ، وكثير عزة ، والقيسان : ابن ذريح والعامرى .

وقد مضى القدماء فى مدوناتهم يكشـفون عن طبيعة تلك المدرسة فى الغزل ، منبهين من خلال مناهج التصنيف عندهم — الى الخصـائص العامة التى تجمع هؤلاء الشعراء فيما يسمى باتجـاه الغزل العفيف فى عصر بنى أمية .

وكان هذا الاتجاه — فى العصر الحديث — موضـوعا لدراسـات متعددة ، وبحوث مستفيضة ، منها ما يتصل بقضية الغزل بصفة عامة ، ومنها ما يتصل بدراسة شاعر من شعرائه .

مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية، العدد التاسع، مطبعة الأمانة ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م

وقد كان من جملة النتائج التى انتهوا اليهـــا أن هؤلاء الشـعراء يمثلون اتجاه الغزل العفيف فى عصر بنى أمية ، حيث تهيـــأ لهذا الفن عصرئذ من أسباب الازدهار مامكن لأصحابه من اتقانه والاجادة فيه ٠

وكان ابن الدمينة ـ بطبيعة الحـــال ـ واحدا من هؤلاء الشعراء الذين عنى بهم القدماء والمحدثون حيث رأوا فى شـعره ما يمثل مدرسة الغزل البدوى فى العصر الأموى ٠ ولم يند عن ذلك الا رأى تفـــرد به أحد الباحثين العصريين ، فقد انتهى فى دراســته الى أن ابن الدمينة من شعراء العصر العباسى (١) ، وأن شعره كان امتدادا لتلك المدرسة التى قاد حركة النسيب فيها جميل بن معمر ٠

ومهما يكن حظ النتائج التى ينتهى اليها الباحث ـ من القبول أو الدفع ـ فانها لا تغض من قيمة الجهد المبـذول ، ولا تحط من شـــأن صاحبها ـ وما الى هذا قصدت ـ فحسب النتـائج فى باب الدراســات الأدبية أنها تتسم ـ غالبا ـ بصفة الاحتمال ، الأمر الذى يجعلها موضوعا للمناقشة فى كل العصـــور ٠ ولهذا رأيت أن تأتى هذه الدراســة فى محاولة للكشف عن طبيعة العصر الذى عاش فيه ابن الدمينة من خـلال ماتيسر فى كتب التراجم من أخبـــاره ، مع الوقوف على طبيعة شـعره واتجاهاته الغزلية ، ومدى علاقته بأقرانه ومعـــاصريه من شعراء الغزل البدوى العفيف ٠

والله أسأل أن يقدر لهذه الدراسة حظـــا من النجـــاح فى بلوغ ما نسعى اليه ، فهو ربى عليه توكلت واليه أنيب ٠

---

(١) انظر ديوان ابن الدمينة المطبوع (تحقيق ودراسة احمد راتب النفاخ ص ٣٤ ـ ٤٠)

النسب والقبيلة :

صرح أبو الفرج بأن ابن الدمينة هو « عبد الله بن عبيد الله احد بنى عامر (١) .. » وعلى هذا مضى رواة أخباره وأشعاره يعرفونه بهذا الاسم سوى ابن قتيبة حيث اختلط عليه الأمر ، فقال : (٢) « هو عبيد الله بن عبد الله » .

وأكبر الظن أن هذا وقع من ابن قتيبة من قبيل تشابه الأسماء . فربما اختلط عليه خبر « عبد الله بن عبيد الله » شاعرنا المعروف بابن الدمينة ، بخبر شاعر آخر معاصر له هو « عبيد الله بن عبد الله » (٣) وهو عالم فقيه شاعر . وليس من هذا القبيل ماوقع عند (ارندونك) وتابعه عليه « بروكلمان » فقد سمياه « عبد الله بن عبيد الله بن احمد » بزيادة لفظ « أحمد » (٤) والأشبه بالحق فى تفسير تلك الزيادة أن صاحب « الدائرة » لم يتحر الدقة فى النقل عن « الأغانى » فترجمة الشاعر عنده تكاد تكون منسوخة من « أبى الفرج » فى « أغانيه »

---

(١) الأغانى ٩٣/١٧ (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب)

(٢) الشعر والشعراء ٧٣١/٢ - تحقيق احمد محمد شاكر - وهذه الترجمة مدفوعة بما ورد على لسان أحد المعاصرين لابن الدمينة يخاطبه بقوله : (الأغانى ٩٥/١٧)

ماذا ترى ابن عبيد الله فى امرأة ليست بمحصنة عذراء حاويها

وهذا صريح فى أنه ابن « عبيد الله » وليس ابن « عبد الله » كما توهم ابن قتيبة .

(٣) انظر خبره فى الأغانى ١٣٩/٩ (المصورة عن دار الكتب) .

(٤) دائرة المعارف الاسلامية ١٦١/١ ، تاريخ الأدب العربى ٢٤٩/١ (بروكلمان) ، ديوان ابن الدمينة ص ١١ (هامش (١)) .

ومانشك فى أن كلمة « احمد » قد وقعت عنده مصحفة عن كلمة « أحد » التى وردت فى عبارة الأغانى المشار اليها سابقا .

وابن الدمينة من الشعراء الذين نسبوا الى أمهاتهم (٥) ، وعرفوا بها وذاعت نسبتهم اليها كعمرو بن كلثوم ، وعمرو بن هند ، وابن ميادة ، وابن الطثرية ، ومحمد بن حبيب . وقد قرر رواة اخباره(٦) أن الدمينة أمه ، وهى الدمينة بنت حذيفة السلولية ، كما قرروا أن كنيته « أبو السرى » .

ويبدو أنهم استظهروا هذه الكنية من شعر ورد على لسان قاتل ابن الدمينة اذ يقول مفتخرا : (٧)

لقيت أبا السرى وقد تكالا له حق العداوة فى فؤادى

وأما قبيلته فظاهر من أخباره أنه خثعمى نسبة الى « خثعم » (٨) وهى قبيلة من القبائل المعروفة فى الجاهلية والاسلام بأيامها وانتصاراتها التى اشاد بها ابن الدمينة فى شعره ، كما صرح بنسبته اليها ، فقال : (٩)

وخثعم قومى مامن الناس معشر أعم ندى منهم وأنجى لخائف

وقد تباينت آراء النسابين فى أصل هذه القبيلة بين العدنانية

---

(٥) من نسب الى أمه من الشعراء - محمد بن حبيب - تحقيق عبد السلام هارون ص ٨٨

(٦) أبو الفرج ، فى أغانيه - ذاته - وابن قتيبة فى - ذاته -

(٧) الأغانى ٩٨/١٧

(٨) الأغانى ٩٣/١٧

(٩) ديوانه ص ١٤٠

والقحطانية (١٠) أو اليمنية والمضرية . ومصدر الاختلاف راجع الى الاضطراب والتداخل فى نسبة « خثعم » الى « أنمار » فمن قال بالعدنانية (١١) ذهب الى أنها من أبناء أنمار بن نزار بن معد بن عدنان . ومن قال بالقحطانية ذهب الى أنها من أنمار بن أراش بن عمرو بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان . (١٢)

واختلاف النسابين حول أصل القبيلة - على هذا النحو - لم يكن أمرا فريدا ، ففى كتب النسب أمثلة كثيرة لاختلاط أنساب القبائل بعضها ببعض واضطراب موقف النسابين منها . وهى ظاهرة تتصل - غالبا - بهجرات القبائل القحطانية قديما ومجاورتها القبائل العدنانية، فالثابت لدى المؤرخين أن قبيلة « خثعم » كانت تنزل شمالى بلاد اليمن مجاورة لبعض القبائل العدنانية (١٣) . فليس ثمة مايمنع أن تكون هذه القبيلة عدنانية النشأة تبعا لموقعها ، وان كانت قحطانية النسب . وقد روى عنهم بعد الاسلام قولهم (١٤) : « نحن أولاد قحطان ولسنا الى معد بن عدنان » ويفهم من أقوال المؤرخين أن قبيلة « خثعم » كانت تنزل فى منطقة « تربة » و « بيشة » مع اختها « بجيلة » فقد روى أبن الكلبى (١٥) ان القبليتين كانتا تعظمان « ذا الخلصة » المعروف

---

(١٠) مقدمة ديوان ابن الدمينة ص ١١ ، ١٢ احمد راتب النفاخ

(١١) أنساب الاشراف للبلاذرى ٢٣/١ ، ٢٤

(١٢) معجم قبائل العرب ص ٣٣١ (عمر رضا كحالة)

(١٣) السيرة النبوية لابن هشام ٧٩/١ (ط مكتبة الكليات الازهرية)

(١٤) معجم قبائل العرب ص ٣٣١ (كحالة)

(١٥) الأصنام ص ٣٥ - تحقيق أحمد زكى - (مصورة عن طبعة دار الكتب)

باسم الكعبة اليمانية ، فلما ظهر الاسلام وكل النبى - صلى الله عليه وسلم - أمر هدمه الى جرير بن عبد الله البجلى ،فسار بقومه « بجيلة » ليهدمه ، فقاتلته خثعم على ذلك وهذا يعنى - اولا - أن خثعم وبجيلة من القبائل اليمانية لارتباطهما بذى الخلصة من ناحية ولأن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان يعهد بهدم أصنام القبيلة للمسلمين من أبنائها من ناحية أخرى ، كما يعنى الخبر - ثانيا - أن خثعم كانت تشارك بجيلة النزول فى منطقة تربة وبيشة فقد صح أن بجيلة كانت تنزل فى هذه المواطن (١٦) .

والظاهر أن قبيلة خثعم كانت من القبائل البارزة التى شاركت فى الفتوحات الاسلامية . فقد ورد ذكرها فى الأعشار التى تألف منها سكان الكوفة فى عهد عمر بن الخطاب - مضى الله عنه - (١٧) والمعروف أن القبائل التى كانت تشارك فى فتح قطر من الأقطار كان ينتهى بها الأمر - غالبا - الى الاستقرار فى هذا القطر المفتوح . ويشهد لهذا أنها ذكرت فى القبائل التى بقيت فى الكوفة على عهد زياد(١٨) . وكانت مع القبائل التى شاركت فى القتال مع معاوية فى موقعة . صفين(١٩) .

وتضم خثعم أربع قبائل : ناهس ، وشهران ، وكود ، وأكلب . ومن أكلب الأخيرة كان ابن الدمينة(٢٠) . وليس فى خبرها مايدل على أنها

---

(١٦) مهد العرب ص ٩٤ عبد الوهاب عزام (ط دار المعارف) .

(١٧) تاريخ الطبرى ٣/٥ .

(١٨) ذاته ٤/١٩٩ .

(١٩) وقعة صفين لنصر بن مزاحم ٢٣٢ .

(٢٠) مقدمة ديوانه المطبوع ص ١٢ أحمد راتب النفاخ .

شاركت فى الفتح الاسلامى ، أو تركت موطنها فى قلب الجزيرة كما صنعت بقية بطون القبيلة ، بل ظلت فى منازلها فى « بيشه »(٢١) مجاورة لبنى سلول أخوال ابن الدمينة ، ويشهد لهذا ما دار بين القبيلتين من قتال بسبب شاعرنا(٢٢) وأن أخبار حياته بما فيها من قصة حبه ، ومأساته مع قومه ، والحوادث التى انتهت بمصرعه كلها ترتبط بهذه البيئة ارتباطا وثيقا .

قصة حبه :

لم تكتمل فصول هذه القصة عند رواة أخبار ابن الدمينة ، بل جاءت فى مدوناتهم نتفا مبعثرة من الأخبار تكشف عن طبيعة هذا العاشق ولكنها لا تكشف عن الظروف التى نشأ فيها الحب بين العاشقين

فقد سلكه « الوشاء »(٢٣) فى عداد شعراء البادية الذين شهروا بالصبوة والغزل من أمثال المجنون ، وجميل بثينة ، وكثير عزة،والأحوص وغيرهم من العشاق الذين تيمهم الحب واستبد بعواطفهم .

وحدث عنه ابن فضل الله العمرى ، معرفا به ، فقال(٢٤) : «أحد من برح به الغرام ، وشب فى قلبه الضرام ، وكلفه بالأحباب ،وصرفه بما تعلق به من الأسباب ، وقد مشت العشاق بعده على طريقه ، وأسرت قلوبها مع طليقه ، وكان بعده قدوة لذوى الكلف ، وأسوة لمن ورد معه موارد التلف » .

---

(٢١) شبه جزيرة العرب ص ٢٤٣ (كحالة) .
(٢٢) الأغانى ٩٧/١٧ .
(٢٣) الموشى ص ٨٤ ط بيروت .
(٢٤) مقدمة ديوان ابن الدمينة المطبوع ص ٢٢ ، ٢٣ (تحقيق النفاخ) .

وابن شاكر الكتبى يكشف عن طبيعة ابن الدمينة - فى كلمة وجيزة - فيقول (٢٥) : « فتى يحب الغزل ومحادثة النساء » .

وربما كان أبو الفرج أكثر المهتمين برواية هذه القصة ، وان لم تسلم روايتها - عنده - من الخلط والتلفيق . ومما حكاه قوله (٢٦) : « هوى ابن الدمينة امرأة من قومه يقال لها « أميمة » فهام بها مدة ، فلما وصلته تجنى عليها ، وجعل ينقطع عنها ، ثم زارها ذات يوم فتعاتبا طويلا ، ... ثم تزوجها بعد ذلك ، وقتل وهى عنده » .

وأثر الخلط فى الرواية ظاهر . فأميمة لم تكن من قوم ابن الدمينة وهذا ما بدا واضحا فى قوله يخاطبها(٢٧) :

وانا لمن حيين شتى واننا على ذاك - ما عشنا - لملتقيان

وليس صحيحا أنه تزوجها - كما زعم أبو الفرج - فالواضح من شعره أنه دعى الى تزويجها ، فامتنع ، ثم ندم على ذلك ، فقال(٢٨):

فأشهد عند الله لا زلت لائما لنفسى ما دامت بمر الكظائم
لمنعى مالا من أميمة بعدما دعيت اليها ان شجوى لدائم

وفى شعره ، كذلك أنها تزوجت غيره ، فلما علم اشتدت حسرته حتى تمنى طلاقها ، فقال(٢٩) :

لقد كثر الأخبار أن قد تزوجت فهل يأتينى بالطلاق بشير
دعوت الهى دعوة ما جهلتها وربى بما يخفى الضمير بصير
لئن كان يهدى يرد أنيابها العلا لأفقر منى اننى لفقير

---

(٢٥) ديوان ابن الدمينة ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢٦) الأغانى ١٧/١٠٠ (ط الهيئة العامة للكتاب) .
(٢٧) ديوانه ص ٣٤ .
(٢٨) ديوانه ص ٢٣ ، ٢٤ .
(٢٩) ديوانه ص ٤٩ .

ويبدو من حديث الغزل فى شعر ابن الدمينة أن حياته ارتبطت بامرأتين تمثلت فى احداهما صورة المأساة التى روعت حياته حتى قادته الى حتفه ، وتمثلت فى الأخرى صورة الحبيبة التى ملكت عواطفه واستبدت بمشاعره ، فقضى حياته متغزلا بها .

أما المرأة الأولى فهى « حماء » والثابت من خبرها أنها كانت زوجه ، وأم ابنته ، والظاهر من شعره أنه قضى فترة من حياته شغوفا بها .وهذا ما يبدو واضحا فى قوله(٣٠) :

حى المنازل من حماء قد درست ... الا ثلاثا على مستوقد ركبا
وما ثلا من مغانى الدار قد لعبت ... هوج الرياح بباقى رسمه حقبا
عجنا على دارها نبكى ونسألها ... عنها ونخبرها عن بيننا خطبا

وأغلب الظن أن هذه المشاعر لم تدم طويلا ، فسرعان ماتكدر صفو الحياة بينهما ، فتحولت مشاعر الحب الى بغض وانتقام ، ويحكى لنا أبو الفرج سر هذا التحول ، فيقول (٣١) : « ان رجلا من سلول يقال له : مزاحم بن عمرو كان يرمى بامرأة ابن الدمينة ، وكان اسمها « حماء » فكان يأتيها ويتحدث اليها ، حتى اشتهر ذلك فمنعه ابن الدمينة من اتيانها ، واشتد عليها ، فقال مزاحم يذكر ذلك ـ فى شعر هجا فيه ابن الدمينة ورهطه ، ثم عرض بعلاقته بحماء ، فلما بلغه شعر مزاحم استدرجه الى بيته فقتله ثم قتل حماء ـ فبكت بنية له منها ، فضرب بها الأرض ، فقتلها ، وقال متمثلا :

لا تتخذن من كلب سوء جروا .

---

(٣٠) ديوانه ص ١٢١
(٣١) الأغانى ١٧ / ٩٤ ـ ٩٧

فكانت نهاية هذه المرأة بداية مأساة جديدة أحاطت بحيـــاة ابن الدمينة فقادته الى حتفه ـ على ماسنعرف فى موضعه ـ

وأما المرأة الثانية فى حياته فهى « أميمة » والثـــابت من خبـره وشعره أنها صاحبته التى أمضى عمره متغزلا بها ، كلفا بحبها ،وكانت تبادله حبا بحب ، وتقـــاسمه آلام الصبابة والـوجد ، فهو يخـــاطبها بقوله : (٣٢)

وأنت التى كلفتنى دلـج السرى وجون القطـــا بالجلهتين جثـوم
وأنت التى قطـعت قلبى حـزازة وقرفت قـرح القلب فهو سـقيم
فلو أن قولا يكلم الجسـم قد بدا بجسمى من قول الوشـــاة كلوم

وهى تجيبه :

وأنت الذى اخلفتنى ما وعـدتنى وأشـــمت بى من كان فيك يلوم
وابرزتنى للنـــاس ثـم تركتنى لهم غرضـــا أرمى وأنت سـليم
وأنت الذى أحفظت قومى فكلهـم بعيد الرضا دانى الصـدود كظيم

وليس فى خبـــره مايكشف عن بواكير هـذا الحب ، أو ينبه الى الظروف التى جمعت بين العاشقين ، ولكن يبدو من شعره أنه عرفها قبل أن تتزوج بثـــلاث سنوات ، فهذا واضح من قوله يعاتبهـــا على الصد والحرمان : (٣٣)

ولقد صحبتك ـ لوجزيت مودة وخلائقـــا ليسـت بذات غـــوائل
عاما فعـــاما ثم آخـــر ثالثـا فبلـــوت ذلك مثل فيـــل الباطل

---

(٣٢) المقطعتان فى ديوانه ص ٤٢ .
(٣٣) ديوانه ص ٧٠ .

فظاهر أنه متألم لفراقها بعد هذه الأعوام ، فقد كان يتمنى أن تظل خالصة له لا يشاركه فيها زوج ولا غيره ، فهو يقول : (٣٤)

وآنذر للرحمن مادمت أيما ... وهل أنت يارب العلا موجب نذرى
صياما وحجا ثم بدنا أقودها ... أوافى بها يوم الذبائح ، والنحر

ولكن وقعت الفرقة بينهما حين تزوجت غيره ، فازداد تعلقه بها وهيامه بحبها ، حتى هرم ، وهذا واضح من قوله(٣٥) :

يا للرجال هوى أميمة قاتلى ... بعد الجلالة والشفيق العاذل
وحوادث تسلى المحب عن الهوى ... ونوائب عذبننا ، وشواغل

الشاعر الطريد :

من يقرأ أخبار ابن الدمينة وشعره يدرك أن فى حياته حلقة مفقودة عصفت بها عوادى الزمن ، فلم تحفظها لنا ذاكرة الرواة . فليس فى أخباره ما يعين على فهم نشأته الأولى ، أو تصورها فى وضوح ، بل يكتنفها الغموض ، وتثار حولها جملة من علامات الاستفهام . وأول ما يلفت النظر من ذلك علاقته بأسرته ورهطه الأدنين من « أكلب » . فليس فى خبره ماينبىء عن طبيعة تلك العلاقة ، ولم يرد فى شعره ذكر لرهطه الا فى موضع واحد يهجوهم على تخاذلهم وقعودهم عن نصرته (٣٦) ، فقد استنصر بهم حين هم به بنو سلول أن يقتلوه ثأرا لابنهم مزاحم الذى قتله ابن الدمينة ولكنهم خذلوه ، ولم ينهضوا لنصرته ، بل تركوه حتى تمكن منه مصعب السلولى فقتله ، وفى هذا مايشير الى أن علاقته لم تكن وثيقة بقبيلته « أكلب » . ولا أدل على

---

(٣٤) ديوانه ص ٥٨ .

(٣٥) ديوانه ص ٦٩

(٣٦) الخبر فى الاغانى ٩٨/١٧ .

ذلك من أنهم أسلموه لخصومهم بنى سلول فى موقف تتحرك فيه الحمية ، وتستثار به العصبية . وبين القبيلتين من النزاع والشر ماحكاه أبو الفرج ، والمعروف من أحوال القبيلة فى البادية أنها لاتتخاذل عن نصرة أبنائها الا أن يكونوا من الخلعاء الذين نبذتهم لدواعى الخروج على نظامها ، أو لجناياتهم المتكررة (٣٧) . وقد لا يكون بين أيدينا نص صريح على أن القبيلة خلعته أو تبرأت من موجبات نصرته ، ولكن لانعدم فى شعره وفى ثتف أخباره المبعثرة ماينبه الى مفتاح تلك القضية ، ففى شعره أنه قضى فترة من حياته طريدا ، يقول مخاطبا حبيبته أميمة : (٣٨)

ومن أنى اهتديت الى طريد　　　وأرض الأسد دونك واللصوص
توسد فى اليمين زمام حرف　　　كناز اللحم أيدة الفصوص

وفى شعره أيضا أنه شريد فى الفلوات ، يعانى سطوة الشمس الحارقة ، لايملك الا سيفه الذى بات عبئا ثقيلا عليه ، ثم هو مستهدف فى كل لحظة لغارات الجند المتلاحقة . يقول : (٣٩)

جفته الفوالى بعد حين ولاحه　　　شموس لألوان الرجال صهوب
وطول احتضان السيف حتى بمنكبى　　　أخاديد من آثاره وندوب
وارجاف جمع بعد جمع وغابة　　　صياح مساء للجنان رعوب

وفى شعره كذلك أنه دخل السجن ، يقول مخاطبا حبيبته : (٤٠)

ذكرتك والحداد يضرب قيده　　　على الساق من عوجاء باد كعوبها
فقلت لراعى السجن والسجن جامع　　　قبائل من شتى وشتى ذنوبها
ألا ليت شعرى هل أزورن نسوة　　　مضرجة بالزعفران جيوبها

---

(٣٧) العصبة القبلية وأثرها فى الشعر الأموى ص ٧٣ .
(٣٨) ديوانه ص ٦٣ .
(٣٩) ديوانه ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٤٠) ديوانه ص ١٨٥ .

ويقول أيضا : (٤١)

وانا لن نصـــاحب ركب قوم ولا أصحاب ســـجن ما حيينا
فيختلطوا بنـــا الا افترقنـــا عليهم بالســـماحة مفضلينـــا

أما دخوله السجن فقد تفسره تلك الجناية التى سلفت الاشـــارة اليها ، حيث قتل زوجه حمـــاء وغـريمه فيها ، وابنته منها ، وان كان يغلب على الظن أنه سبق الى السجن أكثـر من مرة قبـل هذه الجناية ، ففى الخبر الذى انفرد به ابن شاكر الكتبى ، جـاء فيه (٤٢) : « وكان ابن الدمينة قد أخذ غير مرة ، وضرب ، وعوقب ، وخلد فى السجون ، فصار يغرب عن الناس .. »

والجناية المشـــار اليها وان صلحت تفسيرا لدخوله السجن فـــلا تنهض تبريرا لحياة الطريد التى عاشها ابن الدمينة واعلن عنهـــا فى شعره ، فالغالب أنه كان طريدا قبل وقوع تلك الحادثة ، ويشهد لهذا أن المقتول (مزاحم بن عمرو) قال يهجو ابن الدمينة : (٤٣)

ماذا ترى ابن عبيد الله فى امـرأة ليست بمحصنة عـذراء حاويهـا
أيـام أنت طـــريد لا تقاربهـــا وصادف القوس فى الغرات باريها

وهذا يعنى أنه كان طريدا قبل أن يقتل صـــاحب هذا الشعر ، ولكن لانملك القطع بالأسباب الداعية الى ذلك ، فربما كان طريدا لجناية أو جنايات متكررة اقترفها ، وربما استهواه حب المخاطرة والخروج على النظام فى فترة من حياته ، وهذا أمر لم يكن نادر الحدوث آنذاك ، وفى

---

(٤١) ديوانه ص ١٥١
(٤٢) مقدمة الديوان المطبوع ص ١٣ (النفاخ)
(٤٣) الأغانى ١٧ / ٩٥ .

تلك البيئة البدوية بالذات ، فقد عرف به جماعة من أقرانه ومعاصريه من الشعراء ، رويت لنا اخبارهم فى التمرد والفتك · (٤٤)

ومن المستبعد ـ والحالة كذلك ـ أن تستبقى القبيلة تحت حمايتها فاتكا من الفتاك ، أو طريدا مستهدفا لغارات الجند · ففى العصر الأموى « ومنذ عهد زياد أصبح رؤساء القبائل ، واشرافها يؤاخذون بالجرائر التى يرتكبها رجال قبائلهم ، ويلزمون بتأديب سفهاء قومهم ، ومن يتمرد منهم على السلطان » (٤٥)

ولهذا نميل الى القول ـ وان لم نملك الجزم ـ بأن ابن الدمينة كان ممن خلعتهم قبائلهم من الانتماء اليها ، فكان محروما ـ تبعا لذلك ـ من التمتع بحماية القبيلة ، وهذا يفسر لنا موقف رهطه منه ، وخذلانهم له حين استنصر بهم ، ويفسر كذلك انقطاعه وبعده عن أسرته حتى مالت زوجه « حماء » الى الخنا والفجور ـ كما ورد فى شعر غريمه مزاحم ـ وربما يفسر أيضا عجزه عن الزواج بأميمة وقد أرسلت اليه تطلب ذلك ـ كما عرفنا ـ

واغلب الظن أن موقف القبيلة منه ـ على هذا النحو ـ كان سببا فى الغموض الذى اكتنف حياته وأخباره ، فقلما يعنى رواة القبائل باخبار شاعر منبوذ من القبيلة ، يعيش فى الصحراء شريدا طريدا ·

قصة مصرعه :

ترتبط وقائع الحياة وأحداثها بالنسبة لعشاق البادية بالمرأة ، كما ترتبط مصارعهم ـ غالبا ـ بها ·

---

(٤٤) تاريخ الشعر العربى ١/٢٩٤ ، ٢٩٥ (عبد العزيز الكفراوى)
(٤٥) العصبية القبلية واثرها فى الشعر الأموى ص ١٦٨

وقد فرضت طبيعة البدوى على ابن الدمينة أن تدفعه الغيرة الى قتل غريمه مزاحم بن عمرو السلولى لأنه كان يرمى بامرأته حماء . ومنذ وقعت تلك الجناية صار ابن الدمينة مطلوبا بدم القتيل لبنى سلول بصفة عامة ، ولاخويه مصعب وجناح بصفة خاصة ، وما فتئت أم المقتول تحرض ولديها على الثأر والانتقام من ابن الدمينة ، وترثى ابنها بشعر تلهب به حمية أخويه ، فتقول : (٤٦)

بأهلى ومالى بل بجل عشيرتى ... قتيل بنى تيم بغير سلاح
فهلا قتلتم بالسلاح ابن اختكم ... فتظهر فيه للشهود جراح
فلا تطعموا فى الصلح مادمت حية ... ومادام حيا مصعب وجناح

قال أبو الفرج (٤٧) : وأقبل ابن الدمينة حاجا بعد فترة طويلة ، فنزل بتبالة ، فبصر به مصعب واقفا ينشد الناس ، فغدا الى جزار ، فأخذ شفرته ، وعدا على ابن الدمينة فجرحه جراحتين ، فقيل : انه مات لوقته ، وقيل : بل سلم تلك الدفعة ، ومر به مصعب بعد ذلك وهو فى سوق « العبلاء » (٤٨) ينشد فعلاه بسيفه حتى قتله ... ويضيف أبو الفرج الى ذلك خبرا رواه عن السكرى جاء فيه : ومكث ابن الدمينة جريحا ليلته ، ومات فى غد . وبذلك طويت حياة الشاعر الخثعمى ابن الدمينة بعد عمر أمضاه ، وهو يوقع على قيثارة الحب أرق الحان الصبوة والغزل .

---

(٤٦) الأغانى ١٧/٩٧ ، ٩٨
(٤٧) الأغانى ١٧/٩٨
(٤٨) بلد باليمن ، وهى من أرض تبالة

تحقيق عصر الشاعر :

اجتمعت كلمة مؤرخى الأدب ، والمهتمين بدراسة أحواله فى العصر الأموى على أن الغزل قد تهيأ له فى هذا العصر من عوامل النضج والازدهار ماجعله فنا مستقلا ، تنتصب له العزائم ، وتتجه نحوه الهمم وتنفرد به قصائد الشعراء ، بل مدوناتهم الكاملة ، وشاع الاهتمام به فى أسواق الأدب ومجالس الشعر المتعددة حتى يمكن القول بأنه أصبح الفن الأول لجمهور الشعر آنذاك .

ولست اعنى - بطبيعة الحال - أن هذا الفن كان وليد العصر الأموى ، ففى هذا اغفال لأولياته فى العصر الجاهلى ، وانما غاية القصد أن ننبه الى أنه أصبح فنا قائما بذاته ، ولم يعد وسيلة الى غيره من فنون الشعر على نحو ما كان معروفا لدى فحول الجاهليين .. « فلسنا نعرف فى العصر الجاهلى شاعرا قصر شعره على الغزل . وحياته على الحب والغرام ، وانما كان الغزل كغيره من فنون الشعر . أو بعبارة أصح كان وسيلة الى غيره من فنون الشعر ، كان العرب يبدءون قصائدهم - مهما يختلف موضوعها - بوصف الطلول والنساء ... وليس الأمر كذلك فى عصر بنى أمية ، فقد نرى فى هذا العصر شعراء يتخذون الغزل لنفسه صناعة وفنا مختارا ، لا يتكلفون غيره ، ولايعنون بسواه ، فهم لايمدحون ولا يهجون ، وانما حياتهم وصف النساء وما تبعث النساء فى أنفسهم من عواطف وأهواء وميول ، فان طلبت اليهم القول فى شىء غير هذا أعرضوا أو عجزوا .. » (٤٩)

---

(٤٩) حديث الأربعاء ٢/١٦ (دار المعارف)

ومهما تكن الأسباب والعوامل الداعية الى نهضة فن الغـــزل فى العصر الأموى وآيا ما كان حظ المؤرخين فى التفسير لتلك الظـاهرة من القبول أو الدفع فا نالغاية التى نمضى اليها حثاثا فى هذه الكلمة هى أن ننبه الى أن الغزل وبخاصة البدوى العفيف بات معلما بارزا من معالم الحياة الأدبية فى عصر بنى أمية ، وربما كان ســمة من السمات التى ارتبطت بظروف العصر وأحواله الاجتماعية المتمايزة . وحسبنا شاهدا على ذلك أن مدرسة النسيب التى ضمت عشاق البادية قد ارتبطت بهذا العصر ارتباط العلة بالمعلول ، فلما انقضى توارت تلك المدرسة أو كادت تتوارى لانقضاء أسبابها ودواعيها . (٥٠)

وقد مضى رواة أخبار ابن الدمينة على أنه واحـد من هؤلاء الذين ازدهرت بهم مدرسة الغزل البدوى فى العصر الأموى ، فنبه « أبو عبيد البكرى(٥١) » الى أنه : « شاعر متقدم من شـعراء الدولة الأموية » .

كما نبه « خير الدين الزركلى (٥٢) » الى أنه « شاعر بدوى ... اكثر شعره الغزل ... وهو من شعراء العصر الأموى » ثم جعل وفاته نحـــوا من (١٣٠هـ) . وهـو نفس ما وقفنـــا عليه فى « دائـــرة المعارف (٥٣) » من تصريح بزمن الشاعر جاء فيه : (... شاعر معروف من شعراء البدو فى العصر الأمـوى ..) وأما « ارندونك (٥٤) » فقـد عول على أبى الفرج فى ترجمة ابن الدمينة ، ثم رجح أنه كان معـاصرا

---

(٥٠) انظر حديث الأربعاء ١/٢٩٤ (طه حسين)
(٥١) سمط اللآلى ص ٢٦٤
(٥٢) الأعلام ٤/٢٣٧
(٥٣) دائرة المعارف للبستانى ٣/١٦١
(٥٤) دائرة المعارف الاسلامية ١/١٦١ ، ١٦٢ (الترجمة العربية)

لمنى أمية ناسبا هذا الترجيح - خطأ - الى كتاب الأغانى ، وقد تابعه على ذلك « بروكلمان (٥٥) » فترجم للشاعر مع شعراء العصر الأموى من أمثال قيس بن الملوح وقيس بن ذريح ، وجميل بن معمر ، وكثير عزة ، وغيرهم من شعراء الغزل عصرئذ .

والمهتمون بدراسة الغزل البدوى فى عصر بنى أمية مضوا على أن ابن الدمينة يرتبط بهذا الفن ارتباط النسب الوثيق ، ومن هؤلاء الباحثين (٥٦) (الدكتور محمد سامى الدهان) فقد ذكره على أنه واحد من شعراء مدرسة الغزل البدوى فى عصر بنى أمية ، واختار له أبياتا من داليته المشهورة (٤١ - الديوان) عالجها بأسلوب الأديب ليتبين من خلالها سمات الغزل البدوى وطبيعته .

هذا ، وقد استوقفنى فى دراسة عصر الشاعر رأيان يختلفان فيما بينهما اختلافا بعيد المدى ، ذهب أحدهما الى أن ابن الدمينة من شعراء العصر الجاهلى ، وتأخر الثانى بزمنه حتى جعله عباسيا محدثا .

ورايت فى غرابة الرأيين اغراء بمناقشتهما حتى نكون على بينة من الفترة التاريخية التى عاش فيها ابن الدمينة .

وقد انفرد جرجى زيدان بالرأى الأول فزعم أن ابن الدمينة من شعراء العصر الجاهلى ، وهو مدفوع بما ورد على لسان الشاعر من شعر صريح الدلالة على أن قائله لا علاقة له بالجاهلية البتة ، ومن ذلك قوله : (٥٧)

---

(٥٥) تاريخ الأدب العربى ١٩٩/١ ، ٢٤٩

(٥٦) الغزل ص ٤٣/١ (ط دار المعارف) .

(٥٧) ديوانه ص ٥٨

وأنذر للـرحمن مادمت آيمـا — وهل أنت يارب العـلا موجب نذرى
صياما وحجـا ثم بدنا أقودها — أوافى بهـا يوم الذبائح والنحـر

وما أظن جاهليا يتقرب الى الرحمن بهذه المناسك من صيام وحج وبدن يسوقها ليذبحها فى يوم معلوم هو يوم النحر .

وكذلك قوله : (٥٨)

أأخون من بعد المودة والهوى — كـلا ورب محمـد وبـلال
أهل المودة ابتغى شمت العدى — كـلا ورب الطـور والأنفـال

ولا أفهم أن كاتبا كجرجى زيدان يتصور أن يقسم جاهلى بـرب « محمد وبلال » و « رب الطور والانفال »

وكذلك قوله يذكر أثر الأوانس فى نفسه : (٥٩)

ويرين قتل المسلمين بلا دم — حلا لهن وما طلبن ذحـولا

وما أكثر ماورد فى ديوان ابن الدمينة صريحـا فى دفع مقالة جرجى زيدان . وقد انفرد بالرأى الثانى « أحمد راتب النفاخ »(*)فزعم أن الشاعر كان عباسيا محدثا . ومضى فى دراسته التاريخية لابن الدمينة على هذا التصور ، فقـاده الى أمرين : أولهمـا موقفه من النصـوص والشواهد التى تدفع أن يكون الشاعر عبـاسيا ، وقد فرض عليه هـذا الموقف أن يلوى أعناق تلك الشواهد ليجعلها منتمية الى العصر العباسى فى تعسف وتكلف ظاهرين على ماسنعرف .

وثانيهما : أنه وجد نفسه فى دراسة شعر ابن الدمينة أمام اتجاه يمثل مدرسة الغـزل البدوى العفيف فى عصر بنى أمية ، فعـول فى

---

(٥٨) ديوانه ص ١٤٥
(٥٩) ديوانه ص ٤٦
(*) راجع دراسته المثبتة فى صدر الديوان ص ٣٤ ـ ٤٠ .

دراسته على عموميات يمكن أن تصلح قـوالب عامة تعـالج فى اطارها جملة كبيرة من الشعر العربى فى كل العصور ، بغض النظر عن الملامح الفارقة بين شاعر وآخر ، أو بين عصر وآخر • فلو ربطنا دراسته لابن الدمينةو شعره بشاعر من شعراء الغزل بدءا من العصر الجـاهلى حتى نهاية العصر العباس لما تغيرت النتائج التى انتهى اليها فى دراسـته ، لأنها لم تكن نابعة من معطيات الشعر الذى كان يعالجه بقدر ما ارتبطت فى عالمه الفكرى بتصورات عامة عن قضية الغزل فى الشعر العـربى ولو حاول قارىء أن يتلمس ملامح العصر من خلال الدراسه الفنية التى عقدها لشعر ابن الدمينة لكان المطلب عزيزا ، فكيف تبدو صورة عصر خلا أو كاد يخلو من الغزل البدوى العفيف من خلال شعر يمثل مدرسة النسيب البدوى ، وتتمثل فيه روح عشاق البادية فى العصر الأموى ؟

وكان سكوت الباحث عن تلك القضية أمـرا طبيعيا فرضته عليه الثنائية الحادة ، أو الانفصالية التامة التى قررها بين عصر الشـاعر ، وبين معطيات شعره الفكرية والنفسية والوجدانية •

وكان يكفى هـذا ، أو بعضه لدفع ما ذهب اليه النفاخ فى تحديد عصر ابن الدمينة ، ولكن النصفة للشاعر والدارس معا تفرض علينا أن نواجه الدراسة التخصصية بجملة من القرائن التى صحت لدينـا على النحو التالى :

أولا : قد تظاهرت النقول على أن ابن الدمينة من شعراء الغزل فى العصر الأموى لم يخالف عن ذلك أحد بدءا من نهاية القرن الثانى حتى القرن الحادى عشر من الهجرة ، وشـعر الرجل ـ كمـا هو ظاهز من ديوانه ـ يحمل من السـمات والخصـائص مايجعله وثيق الصلة بعصر بنى أمية فى لفته واسلوبه ، وموسيقاه ، وفى طبيعة قصة الحـب التى

يعالجها . وقد أغفل النفاخ هذا كله ليعول على خبر انفرد به أبو الفرج فى « الأغانى » مستظهرا منه ماذهب اليه من رأى . والخبر يرويه أبو الفرج عن الزبير بن بكار (ت ٢٥٦) عن عمه مصعب عن حميد ابن أنيف ، وجاء فى كتابه على هذا النحو (٦٠) : قال مصعب : فلما أفلت من السجن (أى قاتل ابن الدمينة) هرب الى صنعاء ، فقدم علينا وأبى بها يومئذ وال ، فنزل على كاتب لأبى كان مولى لهم ، فرأيته حينئذ ولم يكن جلدا من الرجال »

ولبس فى الخبر - كما هو ظاهر - تصريح ولا تلميح بعصر الشاعر وزمنه ، ولكن النفاح استظهر منه أن قاتل ابن الدمينة ربما امتد به الأجل الى عهد خلافة الرشيد أو بعده ، وانتهى من ذلك الى تغليب الظن بأن ابن الدمينة مات فى تلك الفترة أو امتد به الأجل - على الراجح كما يقول - الى ١٨٣هـ . (٦١)

ولست أناقشة فى الطريقة الافتراضية التى عول عليها فيما استظهره من رأى ، حيث بنى رأيه على مقدمات افترض صحتها - تعسفا - فقادته الى هذا الحكم . ولكنى أناقش رواية الأغانى رغبة فى الوقوف على صحة ما استظهره منها أو دفعه جملة واحدة . وذلك على النحو التالى :

١ - أن مقتضى الاسناد فى الرواية أن يكون أبو الفرج قد شافه الزبير بن بكار (ت ٢٥٦) وهذا محال لما بينهما من تفاوت زمنى ظاهر ، أو أن يكون أبو الفرج قد أخذ الخبر عن مصدر مكتوب ، وهذا بعيد . فطريقته فى تلك الحالة أن يقول : نسخت من كتاب كذا ، أو من كتاب

---

(٦٠) الأغانى ٩٩/١٧ (ط الهيئة العامة)

(٦١) مقدمة الديوان المطبوع ص ٣٩

فلان . وهو لم يصرح بالنسخ فى هذه الرواية ، والباحث نفسه يقرر هذا المعنى فى معرض حديثه عن كتاب الأغانى (٦٢) ، بل يحذر من الاعتداد بالروايات التى وقعت الى أبى الفرج عن الزبير بن بكار لما فيها من خلط وتلفيق ، كما قرر الباحث (٦٣) أنه لايعول على الروايات التى وردت فى الأغانى مخالفة لما عليه الاجماع غير أنه لم يلتزم بهذا المنهج حيث كان الأغانى عمدته فى تحقيق شعر ابن الدمينة ، ومرجعه الأوحد فى تحقيق عصره مخالفا اجماع الرواة والمترجمين .

ومسألة الخلط عند أبى الفرج من المسائل التى نبه اليها بعض العلماء ، وبخاصة فى أخريات حياته ، فقالوا عنه : « خلط قبل مايموت » . (٦٤)

٢ ـ وعلى افتراض ان أبا الفرج قد برىء من الخلط فى هذه الرواية ، وأنه نقلها كما وقعت اليه فان الرواية نفسها لم تسلم من التضارب ، فهى منسوبة الى الزبير بن بكار عن عمه مصعب عن حميد بن أنيف ، ومقتضى هذا أن تكون تفاصيل الخبر قد وقعت الى مصعب بطريق السماع عن حميد بن أنيف ، وهذا يعنى أن مصعبا لم يعاين شيئا من أحداث القصة التى رواها غير أن ماورد فى نهاية الخبر ـ الذى أثبتناه سالفا ـ يثبت عكس هذا ، فقد جاء فيه قوله عن قاتل ابن الدمينة « ... فرأيته حينئذ ولم يكن جلدا من الرجال » وعلى هذا فمصعب رأى القاتل مع أنه يروى الخبر عن حميد بن أنيف ، ولم ينسبه الى نفسه .

(٦٢ ، ٦٣) ديوان ابن الدمينة دراسة وتحقيق ص ١٦٠ (رسالة ماجستير ـ النفاخ) كلية الآداب .

(٦٤) انظر مقدمة ج ١ من الأغانى ص ١٩ (ط وزارة الثقافة)

وقد نسلم بأن مصعب بن عبد الله (راوى الخبر) رأى قاتل ابن الدمينة ، ونسلم كذلك بأن اللقاء بينهما كان فى عهد خلافة الرشيد أو بعدها . فهل يعنى هذا أن نسلم بأن ابن الدمينة امتدت به الحياة الى تلك الفترة ؟ وأنه لم يقتل الا آنذاك ؟ ربما يجب التسليم بذلك أيضا اذا ثبت أن الفترة الزمنية التى ظهر فيها قاتل ابن الدمينة فى صنعاء ، وشاهده مصعب بن عبد الله (راوى الخبر) هى نفسها الفترة التى وقعت فيها جناية القتل ، لكن يبدو من رواية الأحداث أن الفاصل الزمنى بين الفترتين كان كبيرا ، فرواية الخبر هنا تدل على أن قاتل ابن الدمينة قد شاخ وهرم بينما كان شابا يافعا حين أقدم على تلك الجناية ، ويشهد لهذا أن أمه باتت تتحسس بلوعة الثكلى أن يبلغ وليدها الصغير مبلغ الرجال فتدفعه الى قتل ابن الدمينة ثأرا لأخيه مزاحم . فلما استشعرت بواكير الرجولة تدب فى ابنها قالت له : (٦٥) « اقتل ابن الدمينة ، فانه قتل أخاك ، وهجا قومك ، وذم اختك ، وقد كنت أعذرك قبل هذا ، لأنك كنت صغيرا ، وقد كبرت الآن .. »

وعلينا أن نتصور - بعد ذلك - عدد السنين التى قطعها هذا الشاب اليافع حتى يصير الى مرحلة الشيخوخة والهرم ، فاذا صح - ماورد فى بعض الروايات (٦٦) - أن مقتل ابن الدمينة كان حوالى (١٣٠ هـ) أى فى أواخر الدولة الأموية فانه يصح معه - على الفور - أن تمتد الحياة بقاتله الى مابعد خلافة الرشيد ، ولكن لاعلاقة بين القاتل والمقتول فى العصر العباسى كما هو ظاهر .

---

(٦٥) الأغانى ١٧/٩٧ ، ٩٨

(٦٦) الأعلام للزركلى ٤/٢٣٧ ، ودائرة المعارف للبستانى ٣/١٦١

٣ - لم يخف على بعض الرواة والاخباريين مافى هذه القصة التى وردت فى الأغانى من خلط وتلفيق ، فالعباسى (ت ٩٦٣) قد ترجم لابن الدمينة (٦٧) ترجمة منقولة من أبى الفرج لفظا ومعنى ، ومع هذا لم يورد الخبر الذى اعتمد عليه النفاخ فى تحديد عصر الشاعر ، كأنه لم يطمئن الى صحته ، بل صرح بما يدفعه حيث قال معرفا بابن الدمينة: « ٠٠ شاعر كان الناس فى الصدر الأول يستحلون شعره ويتغنون به ٠٠ »

واذا كان العباسى لم يطمئن الى الخبر فصمت عنه ، فان صاحب « الدائرة » قد ناقشه مناقشة انتهى فيها الى دفعة ورده ، فقال : (٦٨) « ٠٠٠ فان كان أحمد بن اسماعيل المذكور فى رواية الأغانى هو احمد بن اسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس الذى كان واليا على مكة فى حدود ١٩١هـ يكن ابن الدمينة قد ادرك خلافة الرشيد (١٧٠ - ١٩٣) بيد أن القرائن جميعها تدل على أن الشاعر عاش فى عصر سابق ، فقد سارت أقواله بين متقدمى شعراء العصر العباس ٠٠٠ فكان لشعره رنة القديم بالنسبة لهذا الجيل ٠٠٠ فاما أن يكون شعره قد حظى بالاتصال على قرب العهد به ، واما أن يكون قد تقدمت وفاته الدولة العباسية ، فيكون القول بأنها حدثت حوالى السنة (١٣٠هـ) أقرب الى الواقع »

وقد آثرت أن أنقل عبارة الدائرة بنصها لأن النفاخ أغفلها فى دراسته ٠

ثانيا : اعتمد النفاخ فى تحقيق عصر ابن الدمينة على وجود صلة

---

(٦٧) معاهد التنصيص ١/١٦٠

(٦٨) دائرة المعارف للبستانى ٣/١٦١

بينه وبين معن بن زائدة الشيبانى ، وقد استظهر هذه الصلة من قول الشاعر يمدح معن بن زائدة : (٦٩)

يامعن يابن كرام من وطىء الحصى
الا النبوة ثم أكرم واثل
حسبا وأكرههم اذا حمى الوغى
بأسا وأصبرهم لحق نازل
ورميت ذا يمن بشيبانية
طحنت جناجن من طغى بكلاكل

وعقب الباحث على ذلك بقوله (٧٠) : وما ندرى على وجه اليقين ، متى كانت هذه الصلة وان كان يغلب على الظن أنه انتجعه مادحا أثناء ولايته لليمن ، وكان معن قد ولى اليمن لأبى جعفر المنصور ١٤٢هـ بعد أن قضى على الفتنة التى نجمت فى تلك السنة ، وظل على ولايتها حتى سنة ١٥١هـ » وظاهر من عبارة النفاخ أنه يفترض أن تكون الأبيات قيلت فى هذه الفترة بالذات ، وأنه انتجعه بها مادحا فى بلاد اليمن .

والذى حمل الباحث على هذا الافتراض رغبته فى أن يلوى أعناق الأبيات فيجعلها وثيقة النسب بالعصر العباس من حيث الزمان ، وشديدة الارتباط ببلاد اليمن من حيث المكان ، وكان يكفيه مئونة هذه الافتراضات - وهى شائعة فى دراسته - أن يمضى مع الأبيات الى قول الشاعر يخاطب معن بن زائدة : (٧١)

---

(٦٩) ديوانه ص ٧٦ ، ٧٧
(٧٠) مقدمة ديوانه المطبوع ص ١٥
(٧١) ديوانه ص ٧٨

لولا ؛ جاؤك لـم أسر من بيشة عـرض العراق بفتية ورواحل

ليدرك أن ابن الدمينة سار من « بيشة » ـ وفيها منـازل قبيلته كما عرفنا ـ راجيا نوال الممدوح فى بلاد العراق • وهذا يفسر ـ دون تكلف أو تعسف ـ الفترة الزمنية التى جمعت بين الشـاعر والممدوح ، فقد صح تاريخيا أن معن بن زائدة كان فى ذلك الوقت من قواد يزيد بن عمرو بن هبيرة والى العراق من قبل مروان بن محمد ، وكان من أشـد اتباع يزيد وأخلصهم له • وقد نبه الجـاحظ الى ذلك فقـال (٧٢) : « ... هو معن بن زائدة الشيبانى أحد اجواد العرب وفرسانهم ، وكان فى أيام بنى أمية متنقلا فى الولايات ، ومنقطعا الى يزيد بن عمـرو بن هبيرة الفزارى والى العراقين .. »

والثـورة اليمنية (٧٣) التى يشير اليهـا البيت الأخير هى التى نجمت فى عهـد الوليد بن يزيد (١٢٥ ـ ١٢٦) واشتدت فى عهـد مروان بن محمد ، ومن الطبيعى أن يكـون معن بن زائدة على رأس من تعقبوا هذه الثورة ، وفى طليعة من عملوا على اخمـادها ، والتنكيـل بأنصـارها مدفوعا الى ذلك بعصبية مضرية من ناحية ، وتبعيته لبنى أمية من ناحية أخرى •

فليس ببعيد أن تكون صلة الشـاعر بمعن بن زائدة قد تمت فى عهد الوليد بن يزيد أو فى عهد مروان بن محمد •

ثالثا : لاخلاف فى أن ابن الدمينة من شعراء الغزل البدوى العفيف وشعره ناطق بأنه قضى حياته متغزلا بصاحبته « أميمة » ولم يأل النقاد

---

(٧٢) البيان والتبين ١١٣/٢

(٧٣) انظر خبرها فى (الطبرى ٥٣٩/٥)

جهدا فى التنبيه الى طبيعة المنـــاخ الذى ترعرع فيه هذا الفن ، فنمـا وازدهر ، وأصبح فنا مستقلا بدواوين الشعراء من عشاق البادية ٠

وخلاصة ما انتهوا اليه فى هذا الباب ان الغزل البدوى العفيف قد بلغ أوج نشاطه وأزدهاره فى العصر الأموى ، تمده بالحياة روح العصر وظروفه المختلفة ، فلما تلاشت هذه الظروف شاخ هذا الفن وهرم ، ولم تستمر به الحياة الى العصر العباس لانقطاع أسبابه ودواعيه ٠ (٧٤)

ابن الدمينة والشـــعر

من يقرأ ديوان ابن الدمينة يدرك أنه شاعر طويل الباع ، واسع الذراع ، تمده بالشعر ملكة لاتجبل ، ومعين فياض لاينضب ٠

وقد جادت قريحته بقصائد ومقطعات سلكته فى البـــارزين من شعراء عصره بل هيأت له أن يزاحم مواكبهم بمناكب ضخمة ، وأن يتبوأ شعره فى مجالس العلم والأدب مكانة ينتزع بهـــا استحسان الأدباء والمتذوقين واقرارهم له بالجودة ، فقد روى أن بعض الحاضرين فى مجلس الرشيد أنشد أبياتا لابن الدمينة مطلعها :

وأذكر أيام الحمى ثـم أنثنى على كبدى من خشية أن تصـدعا

فأعجب الرشيد برقة الأبيات ، فقـــال له عبثر ـ وكان فصيحا متأدبا ـ يا أمير المؤمنين ، ان هذا الشعر مدنى رقيق ، قد غذى بمـاء العقيق حتى رق وصفا ، فصار أصغى من الهوا ٠٠٠ » (٧٥)

---

(٧٤) راجع حديث الأربعاء ١/٢٩٤ ، العصر العباس الأول ص٧٣ (د٠ شوقى ضيف) والغزل عند العرب ص ٢٠٥ د٠ حسان أبو رحاب

(٧٥) العقد الفريد ـ لابن عبد ربه ـ ٦/٣٣

وقد شهد لهذا الشعر رواته والمهتمون به من المتقدمين والمتأخرين، فيقول الزبير بن بكار فى صدر الديوان : (٧٦) « كان ابن الدمينة ... من أحسن الناس نمطا ، يجتمع له مع رقة المعانى الفصاحة ، ومع العنوبة الجزالة . وكان مقدما فى المتغزلين ، نقى الكلم ، بعيدا عن التكلف . يخلط بمذاهب الأعراب حلاوة الحجازيين ، وأكثر شعره نسيب »

وفى خبر رفعه صاحب « الأغانى » الى اسحق بن ابراهيم الموصلى ، قال : كان العباس بن الأحنف اذا سمع شيئا يستحسنه أطرفنى به ، وأفعل مثل ذلك ، فجاءنى يوما ، فوقف بين البابين ، وانشد لابن الدمينة :

ألا ياصبا نجد متى هجت من نجد فقد زادنى مسراك وجدا على وجد

(الخ الأبيات)

ثم ترنح ساعة ، وترجح أخرى ، ثم قال : أنطح العمود برأسى من حسن هذا ! فقلت : لا ، ارفق بنفسك . (٧٧)

ومضى شعر ابن الدمينة - على هذا النحو - فى العصور المتعاقبة يستبد باعجاب العلماء والأدباء ، ويستهوى المتذوقين لفن الغزل الرقيق، فيتناشدونه ، ويتغنون به فى مجالسهم ومحافلهم . وهذا مابدا واضحا فى قول العباسى (٧٨) معرفا بابن الدمينة : « ... وهو شاعر مشهور له غزل رفيق الألفاظ ، رقيق المعانى ، وكان النـاس فى الصدر الأول (العصر العباسى الاول) يستحلون شعره ، ويتغنـون به .. » . وقد

---

(٧٦) صدر الديوان المطبوع ص ٥

(٧٧) الأغانى ١٠٤/١٧

(٧٨) معاهد التنصيص ١٦٠/١ (تحقيق محيى الدين عبد الحميد)

ذهب عبد القادر البغدادى (٧٩) الى مثل هذا فقال عنه : « وهو شاعر اسلامى له غزل رقيق ، كان الناس فى الصدر الأول يغنون بشعره ، ويستحلونه ... »

وفى مطلع القرن الرابع عشر الهجرى أشار محمد الهاشمى البغدادى فى مقدمة طبعته لديوان ابن الدمينة الى منزلته عند أهل الأدب ، فقال (٨٠) : « لاتنخفض منزلة ابن الدمينة عن منزلة معاصريه من الشعراء ، وله ذكرة جميلة بينهم »

وحسبك أن تطالع شعر ابن الدمينة لتجد نفسك أمام شاعر مطبوع لايتكلف من فنون القول ما لايواتيه ، ولا يأتى بما يخالف طبعه ومذهبه ، وحسبه أن الأداء الشعرى عنده نابع من استغراقه فى عواطفه وتعبيره عنها من أقرب طريق ملائم لطبيعتها ، وموطن الأصالة فى شعر ابن الدمينة غير مقصور على الابتداع فى المعانى ، ولذلك فان شعره لايروعنا بدقة معانيه ، وعمقها بمقدار مايروع بصدق الشعور ، وحرارة التعبير . فما أكثر المعانى المطروحة فى باب الغزل ، ولكنها حين تغمر نفوس العشاق يمدونها بالحياة الخصبة من وقد عواطفهم ، وفيض مشاعرهم . وغزل ابن الدمينة خاضع فى معانيه النفسية واتجاهاته العاطفية لقصة الحب التى تيمته ، واستبدت بقلبه حتى أنزلته على سلطانها فيما جادت به قريحته من فنون القول ، فكان شعره دليلا عليها ، كاشفا عنها حتى ذكره المهتمون (٨١) بأخبار العشاق فيمن شهروا بالصبوة والغزل .

---

(٧٩) شرح أبيات مغنى اللبيب ص ٧٩٣ (مخطوط)

(٨٠) المقدمة ص ١ ، ٢

(٨١) الوشاء فى كتابه « الموشى » ص ٨٤

أولا :

صور الغزل فى شعره :

ونعنى بصور الغزل فى شعر ابن الدمينة تلك المعانى التى استفاضت على لسانه تعبيرا عن خلاصة التجربة التى عاشها فى قصة حبه • وهى معان تواطأ عليها الشعراء من عشاق البادية ، وذاعت فى أشعارهم ، فكانت تدور - تبعا لذلك - فى اطار عام تتمثل فى مجموعة قصة الحب البدوى •

وقد فطن بعض المتقدمين الى تلك الصور الغزلية ، فنبهوا الى طابعها العام من خلال منهج التصنيف فى مدوناتهم (٨٢) • وهذا لايعنى - بطبيعة الحال - أن الفوارق الفردية فى الأداء الشعرى قد تلاشت بين هؤلاء الشعراء ، فذلك بعيد عن طبيعة الفن بصفة عامة ، والفن الشعرى بصفة خاصة • والشاعر المطبوع تبدو ذاتيته - لامحالة - فى اطار المعانى الجمعية التى يعبر عنها • وهذا معنى مقرر لدى العارفين بطبيعة الشعر العربى منذ أقدم عصوره • فالشعراء من أبناء البيئة أو العصر قد يلتقون فى اطار المعانى العامة المطروحة فى الطريق (٨٣) ومع هذا ، يبقى التمايز بينهم واضحا فى الوسائل التى يعولون عليها فى أدائهم الشعرى • وتلك مسألة لايتم الفصل فيها حثاثا على هذا النحو ، فغاية القصد أن ننبه - فى ايجاز - الى طبيعة شعر

---

(٨٢) راجع فى هذا (الزهرة لابن داود - دار الكتب - ٨٤٠٣ أدب) ، (الموشى للوشاء بيروت)

(٨٣) راجع مقالة الجاحظ (الحيوان ٣/١٣٢)

هؤلاء العشاق من أبناء البادية ، وما تفرضه تلك الطبيعة من مناهج الدراسة لدى المهتمين بهذا النوع من الغزل ٠

وأول مايلفت النظر من صور الغزل فى شعر ابن الدمينة ،ورفاقه من عشاق البادية تلك اللوعة الحرى التى تفيض بها مشاعرهم حين تبين الحبيبة أو تفارق ٠ يقول ابن الدمينة : (٨٤)

ألا هل من البين المفرق من بد ودل لليال قد تسلفن من رد

وهل مثل أيام بنعف سويقة رواجع أيام كما كن بالسعد

ونلمح فى البيتين حسرة على ذلك الماضى السعيد الذى أطاح به البين المفرق ، فأودع فى نفس العاشق شعورا بالحرمان منه ، والحنين اليه ٠

وكانوا يتوجسون خيفة ان لاحت لهم بوادر الفراق ، ويعدون ذلك مصدر شؤم ، ونذير شقاء ، ولهذا تكثر على ألسنتهم اضافة الغراب الى البين ، فيقول ابن الدمينة : (٨٥)

الا ياغراب البين مم تليح لى كلامك مشنى وأنت صريح

فالا نشقنا ذات يوم فانه ستعقب خطباء السراة صدوح

والمجنون يشارك ابن الدمينة التطير من صوت الغراب ، فهو عنده

---

(٨٤) ديوانه ص ٨٠

(٨٥) ديوانه ص ٢٨ (تليح لى) هكذا فى الديوان ٠ والظاهر ان البيت مصرع ، وكلمة (لى) زائدة

نذير شؤم ، ودليل فراق ، ولهذا نراه ساخطا عليه ، فى قوله : (٨٧)

ألا ياغـــراب البين هيجت لوعتى فويحك خبرنى بمـــا أنت تصرخ
أبا لبين من ليلى فان كنت صادقا فلازال عظـــم من جنـاحك يفسخ
ولازال رام فيـــك فوق ســـهمه فلا أنت فى عش ولا أنت تفـــرخ

وابن الدمينة يحدثنا عن البين والفـــراق من واقع التجربة التى عاشها فى قصة حبه ، فهو ينكر على من زعم أن قـــرب الحبيبة مدعاة للملل وأن فى بعدها شفاء من الوجد .

فالشاعر قد جرب الأمرين ، وعاش الطورين ، فلم يزده كلاهما الا شقاء ووجدا ، ولم يظفر منهما الا بحيرة العاشق فى قـرب الحبيبة وبعدها . وفى ذلك يقول : (٨٨)

وقد زعموا أن المحب اذا دنا يمل وأن النأى يشفى من الوجد
بكل تداوينا فلم يشف مابنا على أن قرب الدار خير من البعـد

والمجنون لايتفق مع ابن الدمينة فى هـذا المذهب ، بـل يزعم أن قرب الدار ان لم يكن وسيلة الى وصل الحبيبة ونفعها ، ومدعاة لاجتناب التفكير فى غدرها ، فعندئذ لايكون فى بينها وفراقها مايروع العـاشق ويؤلمه ، يقول : (٨٩)

أمن أجل سار فى دجى الليل لامع جفوت حذار البين لين المضـاجع

---

(٨٧) ديوانه ص ٩٦ (تحقيق عبد الستار أحمد فراج)
(٨٨) ديوانه ص ٨٢
(٨٩) ديوانه ص ١٩٦

عـــلام تخـاف البين والبين نافع اذا كان من تهواه ليس بنـــافع
اذا لم تـــزل ممن تحب مـــروعا بغـدر فان البين ليس بـرائـع

وهذا معن لايلائم طبيعة العاشق العذرى الذى يجد لذة الحب فى لوعة الحرمان من الحبيبة مقيمة كانت أو راحلة ، قريبة أو بعيدة • والمحب العابث هو الذى لايتألم لفراق الحبيبة لأنه لايجد فى قربها نفعا •

ومن المعانى المصاحبة للفراق عند هؤلاء العذريين أنهـــم يسكبون العبرات فى لحظات الرحيل ، وتنهمر الدموع بغزارة يودعون بها ركب الحبيب أو ينفسون بها عن مضمرات الهوى ، يقول ابن الدمينة : (٩٠)

فما شنتا خرقاء واه كلاهمـــا ســـقى بهما ساق ولا ماتبللا
بأضيع من عينيك للدمع كلما توهمت رسـما أو تبينت منزلا

فقد نبه الى أن عينيه كلتيهما تسكبان الدموع بغزارة ، وقوة كما يندفع الماء من قربتين انفلتت عراهما • وبهذا وضع أمامنا صورة الدموع فى غزارتها ، وشدة انصبابها • وقد نازعه المجنون هذا المعنى فصـور عينه سحابة دائمة القطر وفى ذلك يقول : (٩١)

وانى اذا ما أعوز الدمـع أهله فزعت الى دلحـاء دائمة القطر

وفى المعنى يقول جميل : (٩٢)

لاحت لعينك من بثينة نار فدمـوع عينك درة وغـزار

---

(٩٠) ديوانه ص ٥٢

(٩١) ديوانه ص ١٥٢

فالشعراء ثلاثتهم استهدفوا الابانة عن غزارة الدمع وكثرة انصبابه غير أن جميلا لم يتجاوز - كثيرا - المعانى المجردة للألفاظ الى التصوير الذى يجسد المعنى ، ويلفت نظر المتلقى • وغاية ماعنده اخبار بأن الدموع درة وغزار • أما ابن الدمينة والمجنون فكلاهما قد ربط الدموع بمصدر يشتد صوبه ، ويكثر سيبه ، وهو عند ابن الدمينة قربتان انفلتت عراهما ، وعند المجنون سحابة دائمة القطر ، وبهذا صار المعنى قريبا من تصورنا خاضعا لمعطيات الحس عند المتلقى •

وفى صورة المجنون تبدو أهمية الدموع وخطرها فى حياة العاشق من خلال قوله (أعوز الدمع) ، (وفزعت الى دلحاء) • أما صورة ابن الدمينة فقد أعلنت عن غزارة الدمع ولكن أهدرت قيمته فى تخفيف آلام النفس ، وجعلته شيئا مضيعا كما يضيع الماء المندفع من المزادة دون جدوى •

وابن الدمينة ألطف شعراء الغزل مذهبا فى ضروب التفسير والتعليل • فهو يعلل بكاءه عند من لامه عليه ، فيقول (٩٣) :

وقال زميلى يوم سالفة النقا ... وعيناى من فرط الهوى تكفان
أمن أجل دار بين لوذان والنقا ... غداة اللوى عيناك تبتدران
فقلت ألا ، لا بل قذيت وانما ... قذى العين مما هيج الطللان

---

(٩٢) ديوانه ص ٦٨ ط بيروت

(٩٣) ديوانه ص ١٦٩

وقد زاحمه المجنون فى هذا المعنى ، فقال : (٩٤)

فقلن لقد بكيت فقلت : كـــلا وهل يبكى من الطـرب الجليد
ولكن قد أصـــاب سواد عينى عويد قذى له طـرف حـديد
فقلن فمـا لك معهمـا سـواء أكلتــا مقلتيك أصـــاب عود

فكلاهما يعلل دموعه بقذى العين . بيد أن المجنون ينتهى عند هذا المعنى ، حيث ينطلق ابن الدمينة الى تفسير القذى وبيـــان مصدره فى تعبير رائق تذهب فيه النفس كل مذهب فى قـوله (قذى العين ممـــا هيج الطللان) .

وقد دار هذا المعنى على لسان ابن الدمينة أكثر من غيره من شعراء الغزل ، حتى قال الخالديان(٩٥) : « هو الذى اخترع هذا المعنى ، وقد أخذه بعده جمـــاعة فكل تعلل عنـــد من لامه على البـكـاء بضروب من العلل .. »

وابن الدمينة يرى الدموع دواء لألم النفس ، وراحة لجراح القلب حين تقسو على المحبين لحظات الفراق ، فيقول : (٩٦)

ورحنا وكل نفسه قد تصـــعدت الى النحر حتى ضمها متضـايقه
من الوجد الا أن من فاض دمعـه أراح وظل المـــوت تغشى بوارقه

---

(٩٤) ديوانه ص ١٠٣

(٩٥) الأشباه والنظـائر ص ٢٠٦ ، ديوان ابن الدمينة تحقيـق ودراسة ص ٢٢٤ .

(٩٦) ديوانه ص ٥٤ ، ديوان ابن الدمينة تحقيق ودراسة ص ٢٣٠

وتستبد هذه الصورة بابن الدمينة فيذهب فيها مذهبا لطيفا ، حيث يقرر أن عيونه قد جف سيلها ، ونفد دمعها ، وماذاك لسلوان منه ، ولكن فراق الأحبة قد استنفد ما لديه من دموع ، فيقول (٩٧) :

نظرت بمفضى سيل حرشين والضحى
يلوذ بأطراف المخارم آلها
بدائمة الأحزان أنفد دمعها
مصاحبة الاخوان ثيم ذيالها

وقد تداول الشعراء هذا المعنى فى العصور التالية ، وذاع فى شعرهم ، يقول ابن خفاجة : (٩٨)

وما غيض السلوان دمعى وانما نزفت دموعي فى فراق الصواحب

ومن الصور المألوفة فى قضية « البكاء والدموع » صورة العاشق الذى يسمع صوت الحمائم وهتافها ، فيبكى على فقد الفه وهى صورة قديمة تمتد الى العصر الجاهلى ، وربما سبق اليها عنترة فى قوله : (٩٩)

كيف السلو وما سمعت حمائما ينبدين الا كنت أول باك
ياعبل ما أخشي الحمام وانما أخشى على عينيك حين بكاك

واذا كان عنترة البطل الفوار تستبد به لوعة الذكرى ، وقسوة الفراق عندما يسمع صوت الحمائم ، فان ابن الدمينة وهو من رقق الحب حواشيه ، وأذاب صبره وتجلده يعد أكثر عشاق البادية استجابة لهتاف الحمائم ، وأحرصهم على تصوير هذا المعنى ، فيقول : (١٠٠)

---

(٩٧) ديوانه ص ٥٩
(٩٨)
(٩٩) الموسوع فى الأدب العربى ص ١٠٩ (جورج غريب) بيروت
(١٠٠) ديوانه ص ٨٥

أ أن هتفت ورقاء فى رونق الضحى
على فنن غض النبات من الرند
بكيت كما يبكى الوليد ولم تكن
جليدا وأبديت الذى لم تكن تبدى

ويلفت النظر أن الصورة فى شعر عنترة وردت مطلقة عن التقييد بأوضاع معينة من حيث الزمان والمكان ، وهذا يشعر بأنه دائم التذكر لصاحبته ، فكلما سمع حمائم يندبن بكى شجوا على فراقها .

أما ابن الدمينة فقد قيد الصورة بأوضاع ، وجعلها فى اطار زمنى هو وقت الضحى ، وفى اطار مكانى هو غصن الشجرة . وقد يكون لهذه الأوضاع المحددة بواعثها فى نفس الشاعر ، كأن تكون تعبيرا عن موقف معين ، أو مواقف ارتبط بها فى قصة حبه ، أو صندى لتجربة عاشها مع صاحبته فى وقت معين ، ومكان محدد .

وربما يفسر اختيار وقت الضحى - على وجه خاص - بأنه الوقت الذى تفصل فيه أظعان الحبيبة راحلة عن الديار ، وعندئذ ترتبط فى نفس العاشق بما يثير اللوعة والأحزان . وقد ورد هذا المعنى على لسان المجنون فى قوله : (١٠١)

أ أن هتفت يوما بواد حمامة بكيت ولم يعذرك بالجهل عاذر
دعت ساق حر بعد ما علنت الضحى
فهاج لك الأحزان أن ناح طائر

فهذا واضح الشبه بصورة ابن الدمينة من عدة وجوه :

---

(١٠١) ديوانه ص ١٢٥

١ - المعنى فى الصورتين واحد هو البكاء عند سماع صوت الحمائم .

٢ - كلاهما يختار للصورة زمانا معينا هو وقت الضحى .

٣ - يغلب على الأسلوب فى الصورتين طابع واحد هو الانكار والتقريع .

٤ - الأداء الشعرى عندهما متشابه الى حد بعيد .

- ٢ -

ووصف رضاب الحبيبة من صور الغزل التى ذاعت فى شعر ابن الدمينة ، فهو يصف ريقها بطعم الخمر الممزوجة بماء المزن ، أو الممزوجة بماء الزنجبيل ، فيقول : (١٠٢)

وما نطفة صهباء خالصة القذى بحجلاء يجرى تحت نيق حبابها

سقاها من الأشراط ساق فأصبحت تسيل مجارى سيلها وشعابها

يحوم بها صاد يرى دونها الردى محيطا فيهوى وردها ويهابها

بأطيب من فيها ولا قرقفية يشاب بماء الزنجبيل رضابها

وقد شاعت هذه الصورة الغزلية على ألسنة الشعراء منذ أقدم عصور الشعر ففى العصر الجاهلى يقول قيس بن الحدادية : (١٠٣)

فما نطفة بالطود أو بصرية بقية سيل أحرزتها الوقائع

يطيف بها حران صاد ولا يرى اليها سبيلا غير أن سيطالع

بأطيب من فيها اذا جئت طارقا من الليل واخضلت عليك المضاجع

وفى العصر الاسلامى يقول كعب بن زهير فى مطلع لاميته المشهورة : (١٠٤)

---

(١٠٢) ديوانه ص ٦٢ - ٦٣

(١٠٣) الأغانى ١٢/١٢٥ (ط دار الكتب)

(١٠٤) ديوانه ص ٧ ط دار الكتب المصرية

تجلو عوارض ذى ظلم اذا ابتسمت
كأنه منهل بالراح معلول
شجت بذى شبم من ماء محنية
صاف بأبطح أضحى وهو مشمول
تجلو الرياح القذى عنه وأفرطه
من صوب سارية بيض يعاليل

وشبيه بوصف الريق ـ على هذا النحو ـ ماورد على لسان حسان فى مطلع همزتيه فيقول : (١٠٥)

كأن سبيئة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء
على أنيابها أو طعم غض من التفاح هصره الجناء

ونقرأ هذه الصور الغزلية جميعها فندرك أنها تدور ـ غالبا ـ فى نسق واحد حيث يعنى الشاعر بايراد التفاصيل الدقيقة ، وتتبع جزئيات الوصف (المشبه به) قصدا الى استكمال صورة الموصوف (المشبه) • وتنتهى الصورة فى النهاية الى محصلة واحدة ، ومعنى واحد هو وصف رضاب المرأة بمذاق الخمر الممزوجة بماء المزن ، أو المشوبة بماء الزنجبيل ، وابن الدمينة يمضى ـ أحيانا ـ على هذا النمط المألوف فى رسم صورة الرضاب ـ كما هو ظاهر من أبياته السالفة ـ وأحيانا يضفى على المعنى ظلالا جديدة لم تكن له من قبل ، فيقول : (١٠٦)

وما ماء مزن فى حجيلاء دونها مناكب من شم الذرا ولهوب
صفا فى ظلال بارد وتطلعت به فرط يقتادهن صبوب

---

(١٠٥) ديوانه ص ٨ ط بيروت
(١٠٦) ديوانه ص ١٠١ ، ١٠٢

كأن على أنيابها الخمر شجها　　بماء سحاب آخر الليل غابق
بأطيب من فيها مذاقا وانني　　بشيمي اذا أبصرته لطبيب (١٠٧)

فهو يصف رضاب صاحبته بمذاق الخمر الممزوجة بماء المزن ، ويمعن فى تتبع جزئيات الوصف - تبعا للمألوف - ولكنه يحرص على أن ينبه فى البيت الأخير الى أنه لم يذق هذا الرضاب ، وانما علم ذلك بالنظر كما يعلم الناظر الى السحاب مايحمله من مطر . وهو معنى جديد يضاف الى وصف الريق ، فيحفظ على لسان الشاعر عفته ، ويصون لحبه عذريته ، وربما أوحى اليه بذلك رغبته فى أن يطمس بريق الحسية اللامع فى الصورة القديمة .

وقد شاركه فى هذا المعنى الطريف المجنون فى قوله : (١٠٨)

معسكر ولاح مرت ودقاته　　صبا بعدما هبت لهن جنوب
وما ذقته الا بعينى تفرسا　　كما شيم فى أعلى السحابة بارق

فكلا الشاعرين قد اعتمد على الفراسة والنظر فى تصور ريق الحبيبة ، ومذاقه . ومن المعانى اللطيفة فى وصف الريق عند ابن الدمينة أن يحسد المسواك على تمتعه بشهد الرضاب : فيقول : (١٠٩)

هنيئا لعود الضرو شهد يناله　　على خصرات ريقهن عذوب

بل يذهب ابن الدمينة فى تصور آثار الريق مذهبا يسجل فيه أن هذا الريق يشفى العليل الذى أشرف على الموت ، فيقول : (١١٠)

---

(١٠٧) الشيم : النظر الى الغيم والمطر
(١٠٨) ديوانه ص ٢٠٣
(١٠٩) ديوانه ص ١٠٢
(١١٠) ديوانه ص ١٣٧

وريا بعيد النوم لو روحت بها مدانيف لارتاحت قلوب المدانف

وجميل بثينة يسرف فى تقدير آثار ريق صاحبته حيث يجعله دواء للموتى ، فيقول : (١١١)

مفلجة الأنياب لوأن ريقها يداوى به الموتى لقاموا من القبر

- ٣ -

يقول ابن الدمينة(١١٢) :

أحقا - عباد الله - أن لست رائيا سنام الحمى آخرى الليالى الغوابر

كأن فؤادى من تذكره الحمى وأهل الحمى يهفو به ريش طائر

فموضوع الأبيات هو فؤاد العاشق فى جيشانه بالمشاعر ، وخفقانه بالعواطف حين تهيجه لوعة الذكرى . وهو موضوع مألوف متداول اشترك فيه جماعة من الشعراء ، منهم عروة بن حزام فى قوله : (١١٣)

كأن قطاة علقت بجناحها على كيدى من شدة الخفقان

وكذلك المجنون فى قوله : (١١٤)

كأن القلب ليلة قيل يغدى بليلى العامرية أو يراح

قطاة عزها شرك فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

لها فرخان قد تركا بقفر وعشهما تصفقه الرياح

---

(١١١) ديوانه ص ١٠٥

(١١٢) ديوانه ص ٤٥

(١١٣) الشعر والشعراء ٢/٦٢٦

(١١٤) ديوانه ص ٩٠ - ٩١

اذا سمعا هبوب الريح هبا وقالا : آمنا تأتى الرواح
فلا بالليل نالت ماترجى ولا فى الصبح كان لها براح

فواصح من الصور الثلاث أن ابن الدمينة وابن حزام كليهما وقفا عند حدود الاطار العام للصورة المألوفة منتهيين الى تصوير القلب فى شدة خفقانه بصورة الطائر فى حركاته السريعة المضطربة .

أما المجنون فقد اختار لصورته من الظروف والملابسات والأوضاع الملائمة وألوان الاثارة المختلفة مايجعل حركة القطاة تتصاعد فى قوة وتتابع فى سرعة ، بحيث تجسد لنا فى دقة حركة قلب العاشق فى شدة خفقانه . وابن الدمينة يرى شفاء قلبه من تباريح ، وآلام الوجد مطلبا عزيزا ، وأن من يدعى القدرة على ذلك فهو طبيب كذوب ، يقول : (١١٥)

ألهفى لما ضيعت ودى وماهفا فؤادى لمن لم يدر كيف يثيب
وان طبيبا يشعب القلب بعدما تصدع من وجد بها لكذوب

ولا عجب فى ذلك فقد تمكن الحب من ظاهر قلبه وباطنه ، فبات الشفاء منه أمرا مستحيلا ، يقول : (١١٦)

وقد كان قلبى فى حجاب يكنه وحبك من دون الحجاب يسايره
فماذا الذى يشفى من الحب بعدما تشربه بطن الفؤاد وظاهره

وفى البيتين يعرض ابن الدمينة خواطره عرضا تتجلى فيه رقة

---

(١١٥) ديوانه ص ١١٥

(١١٦) ديوانه ص ١٨٤

الشعور ، وسمو الاحساس ، وبراعة الصنيع الفنى ، حيث صور قلبه قلعة كانت حصينة آمنة حتى طرقها هذا الحب بجيوشه ، والتف حولها بسهامه يرميها بقوة ، ويقذف جدرانها بقسوة ، فاذا بحجابها يتمزق ، وجدرانها الحصينة تنهار ، ويدخل الحب طاغيا مستبدا بظاهر القلب وباطنه .

وهؤلاء العشاق يرون أنفسهم - دائما - أسرى مقيدين بأغلال الحب . يقودهم الهوى كما يقاد الأسير الراسف فى أغلاله . يقول جميل : (١١٧)

الا قائل الله الهوى كيف قادنى كما قيد مغلول اليدين أسير

ولكن ابن الدمينة يورد المعنى فى ثوب جديد ، حيث يجعل هواه صورة أخلاقه ، فهما متآلفان كلاهما يقود الآخر بعيدا عن الفحش والريبة ، فيقول : (١١٨)

وقدت الصبا من غير فحش وقادنى كما قيد فى الحبل الجنيب المطارع

ومن المعانى المألوفة لدى هؤلاء العشاق أنهم يستقبلون اساءة الحبيبة بالرضا ، ويقابلون قسوتها عليهم بالصفح والغفران ، يقول المجنون : (١١٩)

حلال لليلى شتمنا وانتقاصنا هنيئا ومغفور لليلى ذنوبها

بل هو يعفو ويتسامح وان سفكت دمه ، فيقول : (١٢٠)

---

(١١٧) ديوانه ص ٩٩
(١١٨) ديوانه ص ٩٠
(١١٩) ديوانه ص ٦٨
(١٢٠) ديوانه ص ٧٥

عفا الله عن ليلى وان سفكت دمى فانى وان لـم تجـزنى غير عاتب
عليهـا ولامبد لليلى شـكاية وقد يشتكى المشكى الى كل صاحب

أما كثير عزة فانه لايمل صاحبته ولا يبغضها . أساءت اليه أم أحسنت ، بل يدعو باتهلاك على من يتمنى لها الردى ، فيقول(١٢١) :

أسـيىء بنـا أو أحسـنى لا ملومة لدينـا ولا مقليـة ان تقلت
أصاب الردى من كان يهوى لك الردى وجن اللواتى قلن عزت جنت

وابن الدمينة يعالج هذا المعنى بشكل يجعله متمالكا غير متهالك ، فيقول : (١٢٢)

أبينى أفى يمنى يديـك جعلتنى فأفرح أم صبرتنى فى شـمالك
لئن سـاءنى أن نلتنى بمسـاءة لقد سرنى أنى خطـرت ببـالك

فهو لايسوى بين اساءة الحبيبة واحسـانها كمـا صنع كثير ، ولا يجعل من نفسه حمى مستباحا لعدوان صاحبته كما صنع المجنون ، ولكنه يرى فى مسلكها دليلا على اهتمـامها به ، وتفكيرها فيه ، وهذا مصدر سروره .

وقد اسـتهوى هذا المعنى كثيرا من المعجبين به ، فاتخذوه مثلا يضرب حين يجيىء موضعه ، فقد روى أن رجلا بلغه أن صديقـا له وقع فيه ، فكتب اليه : (١٢٣)

لئن ساءنى أن نلتنى بمساءة لقد سرنى أنى خطرت ببـالك

وأغلب الظن أن أبا تمام قد تأثر بهذا البيت فى قوله : (١٢٤)

عمت محاسنه عنى اسـاءته حتى لقد حسنت عندى مساويه

---

(١٢١) الزهرة ـ محمد بن داود ـ ص٥٤
(١٢٢) ديوان ص ١٧
(١٢٣) العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٦ .
(١٢٤) الزهرة ص ٥٤

- ٤ -

ومن المعانى التى تشيع فى غزل العذريين ،وتستفيض فى أشعارهم « الخوف من الرقباء أو الوشاة » • وهو معنى يدور على ألسنتهم بصور مختلفة ، فأحيانا يأتى - عندهم - تعبيرا عن وفائهم لصواحباتهم ، وصونا لأسرار الحب أن تستباح ، وخوفا من قلى الحبيبة وصرمها : ولهذا يعلن العاشق أنه يراقب عهدها ويرعى ودها فى المشهد والمغيب ، وكأنما تراقبه فى كل أحواله ، فيقول ابن الدمينة مخاطبا صاحبته : (١٢٥)

وانى لأستحييك حتى كأنما ... على بظهر الغيب منك رقيب
حذار القلى والصرم منك فاننى ... على العهد ما داومتنى لصليب

وقد عاب عليه « محمد بن داود (١٢٦) » فى « الزهرة » تعليله للوفاء فى البيت الثانى ، فقال : « أما هذا فقد أحسن فى البيت الأول، وبرد فى البيت الثانى اذ جعل علته فى الوفاء لها حذار قلاها وصرمها ، وعلى أنه لم يرض أيضا بذلك حتى جعل مداومته عليها متصلة بمداومتها عليه لاغير • وهذه حالة مفرطة الخساسة ، ومتناهية القباحة •• »

وصاحب الزهرة يعالج القضية بتصورات يستمدها من مثالية الحب العذرى ، وهو حب يقوم - لدى أنصاره - على الوفاء فى كل الأحوال بعيدا عن الغاية والغرض •

وقد أصاب ابن داود حين ذهب الى أن الشاعر قد أحسن فى البيت الأول ، فأغلب الظن أنه من المعانى التى انفرد بها ابن الدمينة ،

---

(١٢٥) ديوانه ص ١٠٦ - ١٠٧
(١٢٦) الزهرة ص ٣٥٩

وكان موضع اعجاب الأدباء والشعراء فى عصور لاحقة ، حيث رأى فيه البعض (١٢٧) نوعا من الوفاء الجميل المحبوب الذى لايكون رياء ولا نفاقا ، بل يكون صادرا من القلب ، وذلك هو الوفاء الذى يجعل المحب يرعى ود الحبيبة فى الغياب .

وأكبر الظن أيضا ، أن هذا المعنى قد أصاب هوى فى نفوس الشعراء ممن تأخروا عن ابن الدمينة ، فتأثروا به ، وحاكوه فى شعرهم، ومن هؤلاء « أشجع السلمى » فان له قصيدة يرثى بها أخاه جاء فيها : (١٢٨)

ويمنعنى من لذة العيش أننى أراه اذا قارفت لهوا يرانيا

وهذا المعنى مأخوذ - كما نبه ابن قتيبة - من قول ابن الدمينة السابق .

وانى لأستحييك حتى كأنما على بظهر الغيب منك رقيب

ومسألة الخوف من الرقيب باتت لدى شعراء الغزل عنصرا هاما من عناصر المعاناة التى يكابدها العاشق فى قصة حبه . وابن الدمينة - فى شعره - يشقى كثيرا بهؤلاء الرقباء ، ويضيق بهم ، ويشعر بأنهم عقبة تكتئد طريق المودة ، وتحول بينه وبين لقاء الحبيبة ، فهم لايغفلون عنه لحظة ، بل يتربصون به فى كل موضع ، ويرصدون حركاته فى كل موقع ، فيقول : (١٢٩)

أحقا - عباد الله - أن لست صادرا ولا واردا الا على رقيب

---

(١٢٧) د. حسان أبو رحاب فى (الغزل عند العرب ص١٤٧)

(١٢٨) الشعر والشعراء ٢/٨٨٥ - تحقيق أحمد شاكر -

(١٢٩) ديوانه ص ١٠٣ - ١٠٤

ولا ناظـــرا الا وطـــرفى ، دونه بعيد المراقى فى السـماء مهيب
ولا ماشيا وحدى ولا فى جمـــاعة من النـاس الا قيـل أنت مريب
وهـــل ريبة فى أن تحن نجيبـــة الى الفهـــا أو أن يحن نجيـب

ولم يفلت من قبضة هؤلاء الرقباء وعيونهـــم عاشق من عشـــاق البادية ، يقول جميل : (١٣٠)

أحقا ـ عباد الله ـ أن لست زائـرا بثينة الا أصغيت لى المســـامع
والا عـــدانى دون بثنـــة أعـين حداد ولامتنى النســـاء الهلامع

وأثر التشابه بين الشـــاعرين واضح ، لافى المعـــاناة ودواعيها النفسية فحسب ، بل فى طرائق التعبير أيضا · وربما كان التشابه فى المواقف النفسية التى يصدر عنها هؤلاء العشاق مدعاة الى التشـابه فى طرائق التفكير والتعبير ، أو ربما تمثل أحدهما بقول الآخر ، واستزاده فى شعره · وهذا غير مستنكر لدى فحول الشعر القدامى ، وقد تفعل ذلك العرب لاتريد به السرقة · (١٣١)

والمجنـون يخشى هـؤلاء الرقبـاء ، ويتقى عيونهم بالاعراض عن صاحبته · وهو اعراض يصاحبه ألم ، ويعقب فى نفسه لوعة وصبابة . يقول : (١٣٢)

اذا جئتهـا وسـط النساء منحتها صدودا كأن النفس ليست تريدها
ولى نظرة بعد الصدود من الهوى كنظـرة ثكلى قد أصيب وحيـدها

---

(١٣٠) ديوانه ص ١١٦
(١٣١) أنظر طبقات فحـــول الشعراء ٥٨/١ (تحقيق محمـود محمد شاكر)
(١٣٢) ديوانه ص ١١٧

وابن الدمينة يدارى هؤلاء الرقبـاء ، ويتقى عيونهم أيضا ، فيهجر ولا يلتقى بصاحبته الا لماما ، فيقول : (١٣٣)

وما نلتقى الا الفجاءة بعـدما نرى أن أدنى عهدنا المتقـادم

وما نلتقى الا لمـاما على عدى عداد الثريا وهى منك الغنـائم

أدارى بهجرانيك صيدا كأنما يآنفهم من أن يرونى الغمـائم

وأحيانا ينزع به الطبع البدوى الى تحدى هؤلاء العداة ، فلا يعبأ بهم ،ويخاطر بنفسه من أجل اللقاء ، فيقول : (١٣٤)

وانى على رغم العداة بأنقـع شـفاء لحومات الصدى لشروب

والمجنون يشارك ابن الدمينة فى التمرد على الرقباء والثورة عليهم بل يتحداهم غير مكترث بعيونهم ، فيقول : (١٣٥)

لئن منعوا ليلى السـلام وضيقوا عليهـا لأجلى واسـتمر رقيبهـا

أتيت ولوأن السـيوف تنوشنى وطفت بيوت الحى حيث أصيبهـا

فلا تعذلونى فى الخطار بمهجتى هوى كل نفس حيث حل حبيبهـا

ففى مثل هذه الصور ترى الشاعر العاشق بين عاطفتين : عاطفة الاشتياق الى صاحبته ، وعاطفة الاشفاق عليها ،وهو بين هذين الشعورين لايملك الا المخاطرة بنفسه ، والمجازفة بسره غير مكترث بالعيـون التى ترصده ، والسيوف التى تنتظره ، وقد نبه الى هذا المعنى من أحـوال العشاق صاحب الزهرة ، فقال (١٣٦) : « فأما من غلبه الفراق ، وملكه الاشفاق ، وأذاع سره الاشتياق قل اكتراثه بمن يرتقبه .. »

---

(١٣٣) ديوانه ص ٢٣

(١٤٣) ديوانه ص ١١١

(١٣٥) ديوانه ص ٧٢

(١٣٦) الزهرة ص ٩٠

ولهذا يعمد ابن الدمينة الى صـــاحبته محذرا اياها ان تستجيب لقول الوشـــاة طالبا اليها أن تكـــون شديد الخصومة لهم ، قوية فى مواجهتهم ، فيقول : (١٣٧)

أميم احذرى نقض القوى لايزل لنا
على النـــأى والهجـران منك نصيب
وكـونى على الواشين لداء شـــغبة
كمـــا أنا للـواشى ألد شـــغوب

ويبدو أن حياة ابن الدمينة بما ارتبطت به من أسـباب البعد عن الناس جعلته مزورا عنهم ، وعن دواعى الانس اليهم والثقة بهـم ، حتى لتشعر فى مواضع متعددة من شعره أن الناس جميعا أصبحوا وشـــاة وأعداء ألداء ، يتوجس خيفة منهم ، وفى ذلك يقول : (١٣٨)

أخا الجن بلغها الســـلام فاننى من الانس مزور الجنـــاح كتـوم
فلو أن قولا يكلم الجسم قد بدا بجسمى من قول الوشـــاة كلـوم

وحين تستجيب صاحبته لقول الوشاة يثور عليها ، فيقول : (١٣٩)

لعمـــرى لئن أوليتنى منك جفـوة وشب هـوى قلبى اليك شبوب
وطاوعت بى قوما عدى آن تظاهروا على بقـــول الســوء حين أغيب
لبئس اذن عـــون الخليـل أعنتنى على نائبـــات الدهر حين تنوب

وابن الدمينة يرغب فى أن يتخلص من هؤلاء الوشاة ، وأن يفلت من قبضة الرقباء ، فيتمنى أن يكون هو والحبيبة على صـورة تحجبهما

---

(١٣٧) ديوانه ص ١١٢
(١٣٨) ديوانه ص ٤٢
(١٣٩) ديوانه ص ١٠٥ ـ ١٠٦

عن العيون ، وتخفيهما عن الانظار ، فلا يتبعهما أحد ، ولايرصد حركاتهما رقيب ، فيقول : (١٤٠)

يالیتنا فردا وحش نبيت معا نرعى المتان ونخفى فى فيافيها
وليت كسر القطا حلقن بى وبها دون السحاب فعشنا فى خوافيها
وليت انى واياها على جبل فى رأس شاهقة صعب مراقيها
أكثرت من ليتنى لو كان ينفعنى ومن منى النفس لو تعطى أمانيها

فهو يتمنى أن يكون سويا بعيدين عن عيون الناس فى أية صورة من الصور سواء عليه فى ذلك أن يكونا من حمر الوحش ببيتان معا فى صحراء واسعة ، أو مختفيين تحت جناح طائر يحلق بهما دون السماء أو مستقرين فوق ذروة جبل شاهقة صعب رقيها ·

وقد نبه الخالديان (١٤١) الى أن الأبيات تتناول معنى قد اشترك فيه عدة من الشعراء وما أقل زيادة بعضهم على بعض فيه · أكثرهم يسأل ربه أن يجعله والتى يحب جملين أجربين يطردان عن المياه ، ويقذفان بالحجارة عن المناهل ، وبعضهم يتمنى أن يكون غزالا والتى يهوى ظبية فى برية ، حيث لايراهما أحد ··· وهو أصلح أمنية من الأول · فمن تمنى أن يكون جملا والتى يحب ناقته الفرزدق :

الا ليتنا كنا بعيرين لانرد على منهل الا نشل ونقذف
كلا نابه عر نخاف قرابه على الناس مطلى المشافر أحشف

وكذلك كثير فى قوله : (١٤٢)

---

(١٤٠) ديوانه ص ٩٧ _ ٩٨

(١٤١) الأشباه والنظائر ص ٢٢٠ _ ٢٢١

(١٤٢) الأشباه والنظائر ص ٢٢١

ألا ليتنـــا ياعز كنـــا لذى غنى بعيدين نرعى فى الخـلاء ونعزب
نكـون بعيرى ذى غنى فبضعفنـا فـــلا هو يـرعانا ولا نحن نطلب
كـــلانا به عر فمن يرنا يقـــل على حسنها جرباء تعدى وأجـرب

ومن تمنى أن يكون والتى يحب غزالين المجنون فى قوله : (١٤٣)

ألا ليتنـا كنـــا غـزالين نرتعى رياضا من الحوذان فى بلد قفـر
ألا ليتنا كنـــا حمـــامى مغـازة نطـــير ونأوى بالعشى الى وكـــر
الا ليتنا حوتان فى البحر نرتمى اذا نحن أمسينا نلجج فى البحـر
ويالبتنا نحيـــا جميعـــا وليتنا نصير اذا متنا ضجيعين فى القبر
ضجيعين فى قبر عن الناس معزل ونقرن يوم البعث والحشر والنشر

فالموضوع واحد ، والمعنى مشترك • فكل هؤلاء الشعراء رغبوا فى التخلص من عيون الرقباء ، والعزلة عن الناس ، فتمنوا فى ذلك الأمانى، ويمكن تقسيمهم — تبعا لأمانيهم — الى فريقين :

فريق رغب فى العزلة عن النـــاس والتخلص من العيـون التى ترصده فى كل موقع فكانت أمنيته محققه لهذه الغاية التى يتطلع اليها دون أذى يصيبهما ، أو تعسف يلحق بهما • ومن هذا الفريق شاعرنا ابن الدمينة والمجنون • فكلاهما يرغب فى المقـــام بصاحبته بعيدا عن العيون ، فى برية أو مغازة ، لايراهمـــا أحد ، أو محلقين فى أجـــواء الفضاء أو سابحين فى أعماق البحار ، وكلا الشاعرين قد نأى بنفسه وبصاحبته عن تمنى الجرب ، فكانا صـادقين مع نفسيهما ، مستجيبين لما ركز فيهما من طبع عربى يأنف من الجرب ويبغضه •

---

(١٤٣) ديوانه ص ١٦٤ (تحقيق عبد الستار احمد فراج)

وأما الفريق الثانى فلم تكن أمنيتهم صالحة لأن تحقق لهم التخلص من عيون الرقباء ، فالجرب لايحقق هذه الغاية ، بل يجعل صاحبه موضع نفور واشمئزاز ، وهذا يستتبع - بالضرورة - أن يكون موقعا لنظرات السخط والسخرية أينما حل ، بل ربما كان هدفا لصنوف الأذى ، وألوان القذف عند كل مورد أو منهل - كما ورد فى شعر الفرزدق وكثير عزة .

وقد روى أبو الفرج (١٤٤) : « أن عزة لما سمعت أبيات كثير نفرت من الأمنية التى تمناها ، فقالت له : ويحك !! لقد أردت بى الشقاء الطويل ، ومن المنى ماهو أعفى من هذا وأطيب »

وابن الدمينة تستبد به آلام الوجد ، وتباريح الصبابة ، فيسأل : (١٤٥)

فوالله ما أدرى أكل ذوى الهوى على مابنا أم نحن مبتليان

وتقوده حيرة السؤال الى البحث عن العزاء والسلوى ، فيلتمس ذلك فى ضحايا الحب العذرى من العشاق ، فيقول : (١٤٦)

وفى عروة العذرى ان مت أسوة وعمرو بن عجلان الذى قتلت هند

فعمرو بن عجلان قتله حب هند ، وعروة بن حزام قتله حب عفراء ، والمجنون قتله حب ليلى ، وهؤلاء كانوا يرون الموت نهاية كل عاشق ، فلا خير فى عشق - عندهم - لاينتهى بصاحبه الى هذا المصير . وفى ذلك يقول المجنون : (١٤٧)

---

(١٤٤) الأغانى ١٢/١٢٥

(١٤٥) ديوانه ص ٣٤

(١٤٦) ديوانه ص ١٢٠

(١٤٧) ديوانه ص ١٦٥

وما خير عشق ليس يقتل أهله كما قتل العشاق فى سالف الدهر

ولهذا كان يرى بلاءه فى الحب أشد من بلاء عروة ، فيقول : (١٤٨)

عجبت لعروة العذرى أمسى أحاديثا لقوم بعد قوم
وعروة مات موتا مستريحا وها أنذا أموت بكل يوم

وعلى هذا النحو يمضى كثير عزة ، فيقول : (١٤٩)

وأصبحت مما أحدث الدهر خاشعا وكنت لريب الدهر لا أتخشع
وعروة لم يلق الذى قد لقيته ، بعفراء والنهدى ما أتفجع

أما جميل بن معمر فان بلاءه فى اللوجد فوق كل بلاء ، يقول : (١٥٠)

قد مات قبلى أخو نهد وصاحبه مرقش واستفى من عروة الكمد
وكلهم كان فى عشق منيته وقد وجدت بها فوق الذى وجدوا

وقال جرير : (١٥١)

هل أنت شافية قلبا يهيم بكم لم يلق عروة من عفراء ما وجدا

وقال الأحوص الأنصارى : (١٥٢)

لو قاس عروة والهندى وجدهما لكان وجدى بسعدى فوق ما وجدا

وهكذا يمضى المعنى مستفيضا على ألسنة الشعراء حتى يصبح نسقا متشابها فى أدائه التعبيرى بعد أن تشابهت المواقف النفسية التى يصدرون عنها فى غزلهم . وبهذا تثبت لابن الدمينة مكانته وتتأكد أصالته بين رفاقه ومعاصريه من شعراء الغزل بصفة عامة وشعراء مدرسة النسيب البدوى بصفة خاصة .

---

(١٤٨) ديوانه ص ٢٥٦
(١٤٩) الموشى للوشاء ص ٨٥
(١٥٠) نفسه ص ٨٦
(١٥١) نفسه ص ٨٦
(١٥٢) نفسه ص ٨٥

ثانيا : صـــور الفخـــر

ارتبط هذا الفن بالبيئة العربية منذ أقدم عصورها لارتباط حياتها بالأيام والوقائع ، وما استتبع ذلك من حب الفـــروسية ، والميـــل الى تخليد المآثر والمفاخر ، فكان شاعر القبيلة صحيفتها اليومية ، يســجل أيامها ووقائعها ، ويشيد بانتصاراتها ، وبطولات أبنائهـــا ، وقد نبه الجاحظ الى هذا المعنى ، فقال (١٥٣) : « وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها ، بأن تعتمد فى ذلك على الشعر الموزون ، والكـــلام المقفى وهو ديوانها .. »

وقد تهيأت الأسباب للبادية ـ فى عصر بنى أمية ـ أن تعود اليها الروح الجاهلية بأيامها ووقائعها ، وهراشـــها القبلى . ومضى الشـــعراء خلف مواكب الضجيج المزعج ، ينكئون الجـــراح القديمة ، ويرددون قصائد الفخر بالأنساب والأحساب ،ويشيدون بأيام قبائلهم وانتصاراتها فى الجاهلية .

ومن يقرأ صور الفخر فى شـــعر ابن الدمينة يدرك أن هذا الفن الشـــعرى يحتل المرتبة الثانية بعد الغزل . فاذا كانت قصـــة حبه قد استبدت به وحركت لسانه بطائفة كبيرة من صور الغزل التى عرف بها فى تاريخ الشعر العربى فان حب الفروســـية(١٥٤) والمخاطرة ، فضـــلا عن طبيعة البيئة والعصر كل ذلك حرى أن يحرك لســـانه بهذا الشعر الفاخر . وحسبك أن تتلقى قصيدة أو مقطعة من قصائد هذا الفن فى ديوانه لتدرك ـ لامحالة ـ أنه مشدود الى ايقـــاع الجاهلية ونسقها فى

---

(١٥٣) الحيوان ١/ ٧١ـ ٧٢

(١٥٤) الأشباه والنظائر ص ٢١٧

طرائق تعبيره وتصويره ، وفى معانيه ، ويمكن أن نحصر شعر الفخر عنده فى ثلاثة أضرب :

١ - ضرب يشيد فيه بنفسه وشمائله وحبه للمخاطرة .

٢ - ضرب يمثل شعر الخصومات الفردية والقبلية (النقائض)

٣ - ضرب يسجل فيه أيام قومه « خثعم » وانتصاراتهم فى الجاهلية والاسلام مشيدا بما لهم من مكارم ومحامد .

ومن صور الضرب الأول قوله يفخر بالكرم ، وبما طبع عليه من حب الايثار : (١٥٥)

أبيت خميص البطن غرثان جائعا ... وأوثر بالزاد الرفيق على نفسى
وأفرشه فرشى وأفترش الثرى ... واجعل مس الأرض من دونه لبسى
حذار أحاديث المحافل فى غد ... اذا ضمنى يوما الى صدره رمسى

فهو كريم يؤثر رفيقه بزاده وفرشه طلبا للحمد ، وفرارا من الذم بعد موته وهو شبيه بمذهب الجاهليين فى الكرم ، حيث كان حرصهم عليه - فى غالب أحوالهم - نابعا من فرارهم من الذم واللؤم ، أو من رغيبتهم فى كسب المحامد ، وذيوع الصيت فزيد الخيل يحث زوجه على أن تطلب له من يقاسمه الطعام ، فيقول : (١٥٦)

اذا ما صنعت الزاد فالتمس له ... أكيلا فانى لست آكله وحدى
أخا طارقا أو جار بيت فاننى ... أخاف ملامات الأحاديث من بعدى

وابن الدمينة يفخر بأنه فارس مغوار يتهيب الأبطال لقاءه ، ويفن

---

(١٥٥) ديوانه ص ١١٨

(١٥٦) الأغانى ١٤/٧١ ، ٧٢

الأقران من نزاله فرار الثعالب من الأسد ، فالويل لمن يناصبه العداء ، فيقول : (١٥٧)

ثم اكتهلت وكاد يقطر ناجذى ... جعلت تصد البزل حول نزائى
وترى المفاحم شردا من زآرتى ... هرب الثعالب من أبى الأشبال
ذرنى وأقواما صلوا بعداوتى ... ان الشقى بحرب مثلى صالى

وأحيا يمزج الفخر بنفسه بالفخر بآبائه ، فيذكر أنه ورث الكرم عن آباء كرام ، فيقول : (١٥٨)

ولم أبخل على ضيفى وجارى ... بغالى ما أفيد ولا الرخيص
بذلك كان أوصانى جدودى ... فأرعى عهدهم والجد موصى

ومن أمثلة الضرب الثانى عنده مانسب اليه فى الرد على خصم له لم يصرح باسمه وانما ذكر أنه حجازى مغرور فخور بأصله . والظاهر أن هذا الحجازى قال شعرا نال فيه من ابن الدمينة وقومه مما اضطر شاعرنا أن يتعقبه ، ليبطل معانيه ، ويدفع هجومه ، فيقول : (١٥٩)

أتانا بالملا كلم حداه ... حجازى بطينته فخور
عدو لاينام ، ولا تراه ... ولو أبدى عداوته بصير
ولو جاوبثنى لقصر عنى ... وأنت عن المدى ناء حسير
ولو عاودتنى لرأيت قومى ... هم الأشراف والعدد الكبير

ففى البيت الثالث يعتد بقوة شعره ، وقدرته على الملاحاة ، ويحذر خصمه أن ينازله فى هذا الميدان .

---

(١٥٧) ديوانه ص ١٤٦
(١٥٨) ديوانه ص ٦٦
(١٥٩) ديوانه ص ١٩٠

ومن أمثلة هذا الضرب أيضا ماورد على لسانه فى الرد على غيلان بن سلمة الثقفى . فقد روى أبو الفرج (١٦٠) : « أن خثعم جمعت جموعا من اليمن ، وغزت ثقيفا بالطائف ، فخرج اليهم غيلان بن سلمة فى ثقيف فقاتلهم قتالا شديدا ، فهزمهم ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأسر عدة منهم ، ثم من عليهم ، وقال فى ذلك : »

ألا يا أخت خثعم خبرينا ... بأى بلاء قوم تفخرينا
جلبنا الخيل من أكناف وج ... وليث نحوكم بالدارعينا
رأيناها معلمة رواحا ... يقيتان الصباح ومعتدينا
فأمسى مسى خامسة جميعا ... تضابع فى القياد وقد وجينا
وقد نظرت طوالعكم الينا ... بأعينهم وحققنا الظنونا
الى رجراجة فى الدار تعشى ... اذا استنت عيون الناظرينا
تركن نساءكم فى الدار نوحا ... يبكين البعولة والبنينا
جمعتم جمعكم فطلبتمونا ... فهل أنبئت حال الطالبينا

فلما بلغ هذا الشعر ابن الدمينة ، قال : (١٦١)

ألا يا أيها المعتد فخرا ... هلم ألا أخبرك اليقينا
فانك ان فخرت ولم تصدق ... حديثك آية للسائلينا
وانك ان فخرت بغير شىء ... ترد به حديث المبطلينا
فان لخثعم آيات نعمى ... أمارات الهدى نورا مبينا

ثم يشيد ببسالة قومه ، وحسن بلائهم فى تلك الموقعة ، فيقول : (١٦٢)

---

(١٦٠) الأغانى ١٣/٢٠٣-٢٠٤
(١٦١) ديوانه ص ١٥١
(١٦٢) ديوانه ص ١٥٥

وأقبلت الفوارس من ثقيف لنصر عند ذلك مجلبينا
فلما واجهونا أسلموهم وهابوا جانبا منها زبونا
وأيتمنا ربيعة من أبيه وبالشداخ بكينا العيونا
وقتلنا سراة بنى جحاش وأثكلنا نساءهم البنينا

وقد أسرف ابن الدمينة فى فخره ، فنسب الى قومه مالم يحققوه بسيوفهم ، وادعى لهم نصرا كان فى جانب عدوهم ، وتلك طبيعة الفخر التى تحمل صاحبها على التقول والادعاء ، وتقوده الى الاسراف ومجاوزة القصد والاعتدال .

ومن أمثلة الضرب الثالث ماورد فى القصيدة من اشادة بأيام خثعم فى الجاهلية والاسلام ، ففى الجاهلية كانت لهم موقعة مع بنى عامر تقاسم الفريقان فيها الجلاد والصبر ، وكان الشرف فى نهايتها لبنى عامر . (١٦٣) يقول ابن الدمينة مشيدا ببسالة قومه فى هذا اليوم : (١٦٤)

ومن آيات ربك محكمات مواثل مادرسن ومانسينا
مغاور من فوارس من كلاب وعمرو يعترفن ، ويشتكينا
بأن الحى خثعم غادرتهم كليلا حدهم متضعضعينا
ليالى عامر تلحى كلابا على جهد ، وليسوا مؤتلينا
وكان ملاعبا حتى التقينا فجد به وكنا اللاعبينا
وغادرنا فوارسه ورعلا بفيف الريح غير موسدينا

---

(١٦٣) طالع خبره فى (أيام العرب فى الجاهلية ص١٣٢ ومابعدها)
(١٦٤) ديوانه ص ١٥٢

وفى القصيدة نفسها يشيد بقومه مسجلا مآثرهم فى اكرام الجار ، وتعجيل القرى للأضياف ، فيقول : (١٦٥)

ومن آيات ربك أن ترانا بمسكنة القبائل مارضينا
وانك ان ترى منا فقيرا يضيف غنى قوم آخرينا
وان الجار ينبت فى ثرانا ونعجل بالقرى للنازلينا

وتعد هذه القصيدة وثيقة تاريخية سجل فيها مآثر قومه فى الجاهلية والاسلام ، فما كاد ينتهى من الاشادة بأمجادهم وأيامهم فى الجاهلية حتى أشاد ببلائهم فى نصرة الاسلام ، فقال : (١٦٦)

فلما عز دين الحق فينا صرفنا حدها للكافرينا
وقتننا ملوك الروم حتى سكنا حيث كانوا يسكنونا
وقدمنا كتائبها فجاست مواخير الفجور المشركينا

ويلفت النظر أن ابن الدمينة لم يشر فى معرض هذا الفخر ولو باشارة عابرة الى رهطه الأدنين من « أكلب » ، بل صرف جل همه للاشادة بخثعم ، وكذا فى سائر شعره • وتلك مسألة ترجح ماتصورناه سابقا من أنه لم يكن على علاقة طيبة بقبيلته •

ويلفت النظر فى تلك القصيدة أيضا أنها مشدودة الى ايقاع الفخر الجاهلى ونسقه ، وبخاصة نونية عمرو بن كلثوم ، فقد كان لتلك النونية تأثير واضح فى جملة من قصائد الشعر العربى فى مجال الفخر ، منها قصيدة أمية بن أبى الصلت ، وفيها يقول : (١٦٧)

---

(١٦٥) ديوانه ص ١٥١
(١٦٦) ديوانه ص ١٥٩
(١٦٧) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى ص ٤١٠

فتخبرك القبائل من معد ... اذا عـدوا سـعاية أولينـا
بأنا النـازلون بكل ثغـر ... وأنا الضـاربون اذا التقينـا
وأنـا المانعـون اذا أردنـا ... وأنا العـاطفـون اذا دعينـا

وشبيه به قول ابن الدمينة فى القصيدة(١٦٨) :

وقد علم القبائل من معد ... وذى يمن شـفاء الجائرينا
بأنا المعتـدون اذا غضبنا ... وأنا المفضلـون اذا رضـينا

ويقول عمرو بن كلثوم : (١٦٩)

وقد علم القبـائل من معد ... اذا قبب بأبطحهـا بنينـا
بأنا المطعمـون اذا قـدرنا ... وأنا المهلكـون اذا ابتلينـا
وأنا المانعـون لمـا أردنا ... وأنا النـازلون بحيث شـبنا

وحسبنا نظرة فى النونيات الثلاث لندرك أنهـا صورة واحدة فى نسقها التعبيرى ، وايقاعها الموسيقى ، وفى معانى الفخر التى دارت على ألسنتهم • وأغلب الظن أن الشعراء ـ بعد عمرو بن كلثـوم ـ رأوا فى معلقته نمطا فريدا ، وصورة شامخة من صور الفخر فأغرموا بمحاكاتها ، والنسج على منوالها ، حتى ذابت شـاعريتهم فى نسـقها السـاحر ، وايقاعها الأخاذ •

ثالثا : صور الطبيعة فى شعره

وقد ارتبطت صور الطبيعة ومشـاهدها منذ بدء الخليقة بحيـاة الانسان ، حيث دعاه الخالق ـ سبحانه ـ الى التـأمل فيها والتدبر فى معانيها ،فكانت له كالصفحة الواضحة فى كتاب الكون المفتوح ، يقـرأ

---

(١٦٨) ديوانه ص ١٥٨

(١٦٩) شرح المعلقات السبع للزوزنى ص١٣٤

سطورها فى غير عجز ، ويرى فيها من آيات القدرة ، والابداع الالهى ما هو فوق طاقات البشر ٠٠ « أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ،وشمس تطلع وتغرب ، ونجوب تسرى فتغرب ٠٠٠ ومطر يرسل بقدر ، فيحيى البشر ، ويورق الشجر ، ويطلع الثمر ، وينبت الزهر ٠ ان فى ذلك لأوضح الدلائل على المدبر المقدر البارىء المصور ٠٠ » (١٧٠)

مقالة رددها أعرابى جاهلى وهو ينظر الى السماء والنجوم ، وقد أدرك من أسرار هذه المشاهد ما أدرك ، وفقه من حكمتها مانهض به عقله

وربما تتباين دلالات المشاهد الكونية والطبيعية لدى الانسان تبعا لاختلاف العصور وتباين مستويات الفهم والادراك ، ولكن يبقى الاجماع قائما على خطر هذه المشاهد ، وقيمتها فى حياة البشر بصفة عامة ٠ وانما يكون الاحساس بها ، والتوجه اليها - غالبا - بمقدار الحاجة والاعتماد عليها فى حياة الناس ٠ ولهذا كثر على ألسنة العرب فى بواديهم الحديث عن النجوم والأمطار ، والسحاب والبرق والرياح ٠ واستفاضت أشعارهم بالحديث عن المشاهد الأرضية من جبال وسهول ووديان . ومايدب على الأرض من جمال ، وظباء ، وأبقار ، وغير ذلك مما يشاهدونه فى واقع حياتهم ، وقد تمثلت هذه المشاهد فى عالمهم الفكرى والشعورى كما تمثلت فى واقعهم المشهود ، فراحوا يعلنون عن احساسهم بخطرها فى حياتهم ولكن فى صور شتى كأن يقف الشاعر على طلل دارس ليتأمل عوامل الطبيعة التى ألحت عليه ٠ ومازلنا نعنون لهذه الصورة ب « الأطلال أو وصف الديار » كأنها غاية الشاعر ومقصده وفاتنا أن احساس الشاعر مشدود بجملته الى الوصف التفصيلى الدقيق

---

(١٧٠) الأمالى ١/٢٧٣

لعوامل الطبيعة ومشاهدها المتغيرة من أمطار ، ورياح ، وبرق وسحاب وهى مشـــاهد قد ارتسمت فى وجدانه ، وارتبطت بمقومات حيـــاته الصحراوية القاسية أكثر من ارتباطها بذالك الطلل المزعوم · وهذا مابدا واضحا فى قول ابن الدمينة : (١٧١)

أمن طلل بالجـزع قو المعـــارف خلا بعـد أيام المحب المســـاعف
تأبد واســـتنت به درج الحصى يمرن بدق من حطيـــم السوائف
هداهن هيج النظم حتى استلبنه غيـــابة حنـــان من الصيف دالف
هجان الذرا واهى العـــرا متبطح بوعث الربا ذو هيـدب متـــرادف
ملح ببـــرق مســـتطير كـأنه صـفيح بايدى مـأزق متســـايف

ونتأمل الأبيات فندرك أن الشاعر لايعنيه الطلـل بقـدر مايعنيه الاعلان عن احساسه بتلك المشاهد الطبيعية ، ومبلغ تأثيرها فى حيـاته الصحراوية فقد ألف الرياح والسـحاب والأمطار وألفته ، وتغنى بها فاهما لأطوارها وطبيعتها ، مدركا لأسرارها ومدى العلائق بينها · ومن طبع العربى المتبدى أن يعشق مايعرف ويألف ، ويبغض مايجهل وهـو قد عرف باخبرة والمشاهدة أن الرياح الهوج تغير معـــالم الصحراء فى لحظة ، فتحمل دقائق الرمال من مكان الى مكان ، كمـــا فطن من واقع تجاربه الى طبيعة السحاب فى ألوانه وأنواعه ، ومدى عـــلاقته بالرياح التى تثيره فيسقط المطر ، ويستطير البرق ·

والمطر قوام حياة البادية ، والحرمان منه شـقاء وعذاب ، فكانوا يلتمسونه فى كل لحظة ، ويرقبون ســـقوطه بلهفة ظامئة ، وما طلب

---

(١٧١) ديوانه ص ١٣٤ ـ ١٣٥

السقيا لديار الأحبة الا تعبير عن لهيفتهم الى المطر ، واستجابة لحاجتهم اليه ،يقول ابن الدمينة : (١٧٢)

الا حبيـــا الاطـــلال بالجرع العفر سقاهن ريا صوب ذى نضد غمر
مسيل الربا واهى الكلى سبط الذرا أهله نضاخ الندى ســابغ القطر

انها حياة الصحراء فى قسوتهــا ومخاوفها تنطبع فى نفسـهم فيحيون على الأمل المرجى فى نزول الماء

واحيانا نقرأ فى أطلالهم صورة مخاوفهم من حياة الصحراء ممثلة فى عزيف الجن الذى ينبعث من أصـــوات الرياح يقـول ابن الدمينة : (١٧٣)

أمنك ـ أميم ـ الدار غيرها البلى وهيف بجـولان التراب لعـوب
بسابس لم يصبح ولم يمس ثاويا بهـــا بعد جد البين منك عـريب
سوى عازفات يتتحبن مع الصدى كمـــا رجعت جوف لهن ثقـوب

وابن الدمينة يتحدث عن الرياح من خلال احساسه بها وخبرته بأحوالها • فهى ـ أحيانا ـ نكباء معصفة مدمرة كما فى قوله : (١٧٤)

نكبـــاء معصفة السرى ومظلة شـــعواء يعقب قرها بطـلال

وأحيـــانا تكون دليل شوق وغرام • ويشير أمل جديد كمـــا فى قوله : (١٧٥)

جنـــوب بريا من أميمة تغتدى حجـــازية علـــوية وتؤوب

---

(١٧٢) ديوانه ص ٥٦
(١٧٣) ديوانه ص ٩٨ ـ ٩٩
(١٧٤) ديوانه ص ١٤١
(١٧٥) ديوانه ص ١٠٧ ـ ١٠٨

تهيج على الشوق بعد اندماله يمانية علوية وجنوب
وان النسيم العذب من نحو أرضها يجيء مريضا صوبه فيطيب

وابن الدمينة خبير بالغمام يعرف صنوفه ، وطبيعة كل صنف ، فتارة يصفه وهو متجمع وقد بدا بياضه المشوب بالكدرة باناث النعام يطفن حول أولادهن ، فيقول : (١٦٧)

وثنى لما غادرن كل مجلجل زجل الغمامة واطد جلجال
محرنجم حرج كأن نشاصه زمل النعام يردن حول رئال

وتارة يصفه بدهم العشار كثيرة الدر والحلاب عطفا على بنيها ، فيقول : (١٧٧)

درت أوائله الصبا فتبكرت منه رواجح دلح وتوالى
جثل العفاء كأن تحت نشاصه دهم العشار فجعن بالأطفال

هذا ، وترتبط حياة البدوى بالابل ارتباطا وثيقا ، فهم يستعينون بها على قطع المفاوز المهلكة ، والشعاب المضلة ، كما يعتمدون عليها في الوقوف على ديار الأحبة ، ولهذا تمثلت في شعرهم - كما تمثلت فى حياتهم - معنى من أحب المعانى الى نفوسهم ، فما يكاد الشاعر يأخذ فى الحديث عن ناقته حتى تفيض مشاعره ، فيمعن فى ذكر صفاتها ، وأحوالها ، ودقة جسمها ، وقدرتها على السير فى أصعب الطرق ، يقول ابن الدمينة وقد فصلت الظعائن ، وارتحلت، الحمول عن الديار : (١٧٨)

---

(١٧٦) ديوانه ص ١٤١ - ١٤٢
(١٧٧) ديوانه ص ١٤٢
(١٧٨) ديوانه ص ١٢٥ - ١٢٧

أتبعتهم دوسرا رحب الفروج ترى

فى حد مرفقه عن زوره حنبـــا (١٧٩)

مؤيد الصـلب رحب الجوف مطـردا

كالسيد لاجأنبـا كزا ولا طنبـا (١٨٠)

فعم المنـــاكب نهاضـــا اذا حشيت

منه البـراذع جوزا مارنا ســـلبا (١٨١)

يصـــغى لراكبه فى الميس منتحيـا

حتى اذا ما انتحى فى غرزه وثبا (١٨٢)

شـــد الظليـــم مـراحا ثـم كفكفه

حتى استمر به التبغيل والخببا (١٨٣)

كأن رجليه رجـــلا ناشـط مـــرح

من النعام أرح الخطـو قد خضبا (١٨٤)

---

(١٧٩) الدوسر : البعير الشديد ـ الزور : صدره أو وسطه

(١٨٠) رحب الجـوف : واسعه ، مطـــرد : مستقيم ، السيد : الذئب ، الجـأنب : القصير ، والكز : الذى ليســـت له ســـلاسة ، الطنب : الفاحش الطول .

(١٨١) الفعـــم : الممتلىء ، الجوز : الوسط ، المـــارن : اللين ، السلب : الطويل .

(١٨٢) يصغى : يميل لراكبه ، الميس : شجر تعمل منه الرحال ، انتحى : اعتمد ـ الغرز : يشبه الركاب للدابة .

(١٨٣) التبغيل : سير مشبه بسير البغال .

(١٨٤) الأرح : الواســـع الرجلين ـ قد خضـبا : أكل الربيـع فاختضبت من نوره .

كأن أوب يديه حين ترعبه
بالصوت وهو يبارى الضمر النجبا (١٨٥)
أمامهن يدا ساق بما تحة
لما تبودر جم الماء فانتهبا (١٨٦)
كأن غاربه مستشرفا ارم
يوفى اليوافع من أعلاه مرتقبا (١٨٧)
كأن هاديه والعيس تطلبه
جذع بخيبر من جبارة شذبا (١٨٨)
كأن عينيه والأنضاء ساهمة
وقبان فى صخرة صماء قد نضبا (١٨٩)
فى سلهب الخد تسترخى مشافره
اذا اللغام على عرنينه عصبا (١٩٠)

فهو يصف بعيره بأنه قوى دقيق الجسم ، معتدل بين الطول والقصر ، يستجيب لصاحبه ، فيميل له الرحل حتى اذا ما استوى فوقه

---

(١٨٥) أدب يديه : رجعهما فى السير الضمر : الضامرة من الابل
(١٨٦) ماتح : هو المستقى بالدلو ـ جم الماء : اجتماعه .
(١٨٧) غاربه : سنامه ، الارم : الحجر يوضع علامة للطريق ، يوفى : يعلو ، واليوافع جمع يافع وهو العالى .
(١٨٨) هاديه : عنقه ـ الجبارة : النخلة قد فاتت اليد ، شذب الجذع : نزع لحاءه وقشره .
(١٨٩) الأنضاء : جمع نضو ، وهو البعير أتعبه السفر ، الساهم : الضامر ، الوقب : النقرة .
(١٩٠) السلهب : الطويل ـ تسترخى : تتدلى ، اللغام : ماخرج من فيه من الزبد ـ العرنين : الأنف ، عصب : لزم .

نهض فى سرعة ونشاط يعدو عدو الظليم ، فاذا كفكفه اعتدل فى سيره ، واسع الخطو ، مفتـــوح الذراعين ، يمضى الى غايته لايحيد عنهـا ، اذا شعر بالمنافسة جد فى سيره رافعا عنقه ، وعيناه غائرتان كأنهما نقرتان فى صخرة صماء ، وقد استرخت مشافرة ، وظهر على أنفه الزبد .

وابن الدمينة يتحدى بناقته المغاوز المهلكة التى تعجز المطـايا عن مواصلة السير فيها ، ولكن ناقته تمضى حثاثا الى غايتها ، فتزعزع الرياح ثياب الركب ، من شدة خطوها ، وقوة سيرها ، فيـــأخذون بأطـراف الأحاديث يستعينون بها على مشقة السير . يقول : (١٩١)

اذا القوم شدوا بعدما كملوا السرى

نصادرها باللامعـات التنـائف (١٩٢)

برماحة الأنضـــاد قماصة الصوى

تداوى المطايا من مراح العجارف (١٩٣)

وخـدن بهـــم حتى كأن ثيـــابهم

تزعزع من لف الرياح العواصف (١٩٤)

---

(١٩١) ديوانه ص ١٣٨ ـ ١٣٩

(١٩٢) كملوا السرى : سروا الليل بأكمله ـ اللامعات : الفلوات الواسعات يلتمع فيها السراب ـ التنائف : جمع تنوفة وهى الغـــلاة لا ماء فيها ولا أنيس .

(١٩٣) الرماحة : من قولهـم : رمحه اذا طعنه بالرمـح ، ورمحت الدابة ، اذا ضربت برجليها ، والأنضاد : جمع نضد ـ بالتحريك ، وهى جنادل بعضها فوق بعض ، الصوى : جمع صوه ، وهى حجـر يوضـع علامة فى الطريق . المراح : النشاط ـ العجارف : جمع عجرفة ، وهى السرعة وعدم القصد فى السير .

(١٩٤) الوخد : من سير الابل ، وهو سعة الخطو فى المشى .

بشـــعث يجلى عنهـــم غابر السرى

لها من أحاديث الكرام الطرائف (١٩٥)

وبعد ... فقد طوفت هذه الدراسة حول ابن الدمينة وشعره ، في محاولة للوقوف على ما أشكل من خبره ، أو اكتنفه الغمـــوض من سيرته ، وكانت الرغبة ملحة في الكشف عن طبيعة شعره واتجـاهاته سعيا الى ربطه بالعصر الذى تنفس فيه ، والمدرسة التى ينتمى اليها ، وقد عولت في هذا على ما استقام - لدى - من خبر الشاعر ، وماسلمت نسبته اليه من الشواهد والنصوص ، وتبين من الدراسة أن الغالب على شعره الغزل ، وأنه يقف بغزله شامخا بين عشـــاق البـادية ، يزاحم مواكبهم بمناكب ضخمة ، فكان المجال متاحا من الناحية الفنية لاستطلاع مكانه ومكانته بين أقرانه ومعاصريه من ناحية ، وبين شـــعراء الغـزل السابقين أو اللاحقين من ناحية أخرى .

وانتهيت من الموازنة بينه وبينهم جميعا في المعـــانى المتداولة الى الاقرار بفطنته اللماحة ، وشاعريته المطبوعة ، وان كنت لا أدعى أننى تحلبت شعر الرجل ، أو مريت ودقاته على نحـو يستنفد مافيه من در وحلاب ، ففى النفس ترقب لمن يطلب المزيد من شاعر الصبوة والغزل .

« وفوق كل ذى علم عليم »

الدكتور محمود عباس عبد الواحد

---

(١٩٥) الشعث : جمع أشعث وهو المغبر الرأس - غابر السرى : ماتبقى منه ، والغابر من الأضداد - تطلق على مامضى أيضا - لها : المراد مايتعلل به المسافر وغيره .